المنقّى من المنتقى من كتاب إحياء علوم الدين

للإمام الغزالي

جميع حقوق النشر والطبع لكل مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ للهِ الّذي أحيا بعلـومِ الـدِّينِ قلـوبَ العـارفين، وأنارَ بنورِ الإيقانِ بصائرَ السالكين، فاستضاءتْ بنـورِ معرفتِه أرواحُ الموقنين، وتزيَّنتْ بأنوارِ هدايته سرائرُ المتقين، وجعلَ آثارَ العلماءِ حياةً للأرواح، كمـا جعـلَ مطـالعَ الأنـوارِ إشـراقًا للأصـباح. نحمـدُه على نعمٍ تتـوالى ولا تُحصـى، ونشـكره على فضـلٍ لا يُـدرك غايته ولا يُستقصى، ونسأله أن يجعلنا من أهل العلم النـافع، والعمـل الصـالح، والنيـة الخالصـة، والقـدم الراسخة في طريق السالكين إلى رضاه.

وصـلى اللـه على سـيدنا محمـدٍ، الرحمـةِ المهـداة، والنعمةِ المسـداة، الـذي أحيـا اللـه بـه القلـوبَ بعـد موتهـا، وأخـرجَ بهـا النفـوسَ من ظلمـاتِ جهلهـا وغفلتهـا، إلى أنـوارِ هـدايتها ورشـدها، وعلى آلـه الطيـبين وصـحبه الأكـرمين، ومن سـار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإنَّ كتابَ إحياء علوم الدين للإمامِ الحجة أبي حامـدٍ محمد بن محمدٍ الغزالي رضي الله عنه وأرضاه، هو من أنفسِ مـا أُلِّف في تهـذيب النفـوس، وتصـفية القلوب، وجمعِ بين علمِ الظاهرِ والباطن، والشـريعةِ

والحقيقة، حتى صارَ كالبحرِ المحيطِ الذي لا يُدرَكُ غوره، ولا يُملُّ شربُه، يُغني القلوبَ عن سواه، ويهدي الأرواحَ إلى مولاها.

فهو كتابٌ أحيا الله به ما مات من معاني الإيمان، ونبَّهَ الغافلين إلى عظمةِ الرحمن، وعرّفَ السالكين طريقَ المجاهدةِ والإخلاص، وفتحَ لهم أبوابَ الأُنسِ بربِّ الناس، حتى غدا كما قيل فيه: «من لم يقرأ الإحياء فليس من الأحياء».

وقد أقرّ بفضله أئمةُ العلم والبيان، وأثنى عليه من رسخ في الفهم والإحسان، كابن الصلاح (ت ٦٤٣ هـ) الذي قال: «ما رأيتُ مثلَ كتابِ الإحياء»، والسبكي (ت ٧٧١ هـ) الذي قال: «كان الغزالي مجددًا على رأس المائة الخامسة، وإحياء علوم الدين أحسن تصانيفه على الإطلاق، وهو كتاب لم يُصنف مثله في الإسلام»، وابن عساكر (ت ٥٧١ هـ) الذي وصفه بـ«حجة الإسلام وزين الأنام، إمام أئمة الدين، وعلم الأعلام، ومن جمع بين علمي الفقه والتصوف»، والإمام النووي (ت ٦٧٦ هـ) الذي دافع عنه دفاعًا مشهورًا، وقال: «كاد الإحياء أن يكون قرآنًا».

ولما كانت بعضُ نُسَخِ المنتقى من الإحياء قد افتُتحت بكلامٍ يوهمُ خلافَ ما عليه أهلُ الإنصاف والاعتراف، أحببتُ أن أقدّم بين يدي هذا العملِ مقدّمةً تُعيدُ للإحياء مكانتَه، وتُظهِرُ فضلَ مؤلفِه،

وتُعبّــرُ عن روحِ الوفــاءِ والعرفــان لأئمــةِ الهــدى والإحسان.

وقد قال الشيخ محمد حسن هيتو رحمه الله تعـالى، وهو يستطرد في مدح الإمام الغزالي وكتابه الخالد: إن المنهج السائد اليوم يقـوم على لعن سـلف هـذه الأمة، ولن تقوم الساعة حتى يلعن آخـر هـذه الأمـة سلفها، فترى الإنسـان لا يقيم لسـانه بقـراءة جملـة واحدة إلا ولحَن فيها، ومـع ذلـك يتكلم على العلمـاء الذين يتشرف الكـون بـذكرهم. والغـزالي واحـد من نوابغ هذه الدنيا، نوابـغ الـدنيا كلهـا، تجـاوز المـذهب والدين والزمان والمكـان. صـنَّف مـا يزيـد عن مائـة مؤلَّف منسوب إليه حقيقة، وربمـا نُسـب إليـه كثـير مما ليس له، وهضمها عقله أكبر من علمه، وإلا لمـا وصـل إلى مـا وصـل إليـه. هـو الـذي وقـف أمـام الفلاسفة وردَّ شبههم في «تهافت الفلاسفة»، سواء أُقـرُّوا بـه أم خـالفوه. عقلـه أكـبر من علمـه، دون هضم.

ولنضرب مثلاً بابن الجوزي، لا للتنزيل من شأنه، بـل لنــبيّن الفــرق بين عقليــتين كبــيرتين في عالمنــا الإسلامي: ابن الجوزي مؤلفاته كثـيرة جـدًا، لكنـه لا يسـتطيع الإحاطـة بمؤلفاتـه، علمـه أكـبر من عقلـه، ولــذلك ألَّف «الموضــوعات» فــذكر فيــه أحــاديث صـحيحة وحسـنة وضـعيفة، حـتى قيـل في «الفيـة» السـيوطي في مصـطلح الحـديث: «وفي كتـاب ابن الجــوزي مــا ليس من الموضــوع»، ومن عجيب مــا

تـراه فيـه حـديث من صـحيح مسـلم وضـعه في الموضـوعات. ليس لأن صـحيح مسـلم يخفى عليـه، بل لأنه لا يحيط بمعلوماته. وهـذا يرفـع من مكانتـه، فكفى المـرء نبلاً أن تُعـد معايبـه. لكن الفـرق بين عقلية جبارة تحيط بما كتبت وتهضمه، وعقلية أخرى عندها علوم كثيرة لكنها لا تهضمها. والغزالي رحمـه الله من مفاخر هذا الكون، ومع الأسـف يتكلم عليـه كثير من الأطفال والكبار الجهلة، ولن يضير الغزالي ذلك، فالغـالب هـو الغـزالي، وكلام النـاس نـاتج عن الجهل. ولو أنصفوا، وتجردوا من عواطفهم، ونظروا في كلام الغزالي ومؤلفاته وعلومه، لتغيرت نظرتهم إليه. نعم، يُنتقـد عليـه بعض الأحـاديث الضـعيفة في «إحيـاء علـوم الـدين»، وهـو كتـاب في فضـائل الأعمـال، وقـد اتفقت الأمـة – محـدثها ومفسـرها وأصوليها وفقيهها – على أن الحديث الضعيف يُعمـل بـه في فضـائل الأعمـال بالشـروط المعروفـة عنـد علماء الحديث. وسخَّر الله للإحياء من خرَّج أحاديثه، كالإمـام العـراقي الـذي لم يقـل: الغـزالي جاهـل أو مفترٍ على السنة، بل تشرَّف بتخـريج أحاديثـه، وهي معظمها ضعيفة، وبعضها ربما موضـوع، في فضـائل الأعمـال الـتي لا يضـير اسـتعمال الضـعيف فيهـا بالاتفاق.

وسُـمِّي الغـزالي «حجـة الإسـلام» في زمن عجَّ بعشرات الآلاف من العلماء، مـع قلـة عـدد البشـرية حينئذٍ. وهو إمام من أئمة الكلام، وعلم أصول الفقـه

يـدور على أربعـة: القاضـي عبـد الجبـار الهمـداني المعـتزلي، وتلميـذه أبـو الحسـن البصـري، وإمـام الحرمين، وتلميذه الغزالي. وهو من أوائـل من تكلم في علم النفس وعلم الاجتماع وعلم التربية، وكتابـه الإحياء تُرجم إلى كل اللغات الحيـة في العـالم، ومـا من إنسان في العالم إلا وقرأ للغزالي: إما فيلسـوفًا في فلســفته، أو في علم التربيــة أو الاجتمــاع أو الأخلاق أو الفقــه الشــافعي. والغــزالي أحــد أعظم أفراد السلسلة التي ابتدأت بالإمـام المـزني وانتهت بشيخ الإسلام زكريا الأنصاري: المـزني اختصـر كلام الشــافعي، شــرحه إمــام الحــرمين في «نهايــة المطلب»، اختصــره الغــزالي في «البســيط» ثم «الوسيط» ثم «الوجيز»، شرح الـرافعي «الوجـيز» شرحين كبـيرًا وصـغيرًا، اختصـر النـووي «المحـرر» في «المنهـاج»، ثم اختصــره زكريــا الأنصــاري في «منهجه». فالغزالي واحد من أفراد السلسـلة الـتي يــدور عليهــا الفقــه الشــافعي إلى اليــوم، وعــدد الشافعية يزيد عن خمسمائة مليون، فما يقــرب من نصف مليار يتعبدون الله بمـا قالـه الغـزالي. أيضـير الغزالي بعـد ذلـك أن يتكلم عليـه بعض الجهلـة؟ لا، وما مثل من يتكلم على الغـزالي إلا كنـاطح صـخرة يومًا ليوهنها، فلم يضـرها وأوهى قرنـه الوعـل: «يـا ناطح الجبـل العـالي ليكلمـه، أشـفق على القـرن لا تشــفق على الجبــل». وقــال الــرافعي مثلًا لكلام الصـغار أمـام الكبـار: رجـل زبـال قـال لـو اجتمـع الزبــالون في الأرض وأثــاروا الغبــار على الســماء،

فتبقى السماء صافية متلألئة، وينزل الغبار على رؤوس الزبالين: «لا يضر البحر أمسى زاخرًا أن رمى فيه غلام بحجر».

وقال الشيخ أنس الشرفاوي: الكتب التي أُلِّفت للعلماء، واستطرادًا أقول: من العجائب أن الغزالي ألَّف «إحياء علوم الدين» لفحول العلماء لا للعامة فقط، كما نصَّ في كتابه، ونحن نظنه كتابًا وعظيًا يقرأه الطلاب في بداية السنين. والله أمر عجيب! ويمكن أن نأخذ بمفهوم المخالفة: من ينكر على هذا الكتاب ليس بفحول العلماء. والله كلام بديع: «من لم يقرأ الإحياء فليس من الأحياء». والنووي رضي الله عنه – وحسبك به شخصية مجمع عليها – قال: «كاد الإحياء أن يكون قرآنًا». وحدَّثني من قرأه بإتقان أنه جلس ساعات يحاول اختصار عباراته للخطب أو الدرس، فلم يستطع حذف حرف، كالقرآن لا يمكن حذف منه شيء. وشيخنا الشيخ أسامة الرفاعي حفظه الله يقول: أهمية هذا الكتاب لأن فيه معلومات لا في غيره. وقام شيخ الإسلام حافظ محدث كبير زين العراق بتخريج أحاديثه لأهميته، ولأن أيدي العلماء تطاولت إليه واعتمدته.

وفي الإحياء نحو ٥٦٠٠ حديث مع المكررات، ونحو ٣٨٠٠ بدونها. أكثر من ٢٠٠٠ من الصحيحين، وجل الباقي في السنن الأربعة وكتب الحديث المتناثرة كصحيح ابن خزيمة وابن حبان ومسند أحمد، وبعض رسائل ابن أبي الدنيا (ت ٢٨١ هـ) التي كان للغزالي

عناية كبيرة بها. وكتاب العلم في الإحياء جل مادته الحديثية من «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر. والحافظ العراقي بقيت عنده جملة أحاديث قال: «لم أجد لها أصلاً»، لا «موضوع». ثم استدرك عليه ابن قطلوبغا الحنفي، ثم خاتمة المحققين الحافظ المرتضى الزبيدي الذي وجد أصولاً لمعظم ما فات السابقين. والموسوعات الحديثية الإلكترونية اليوم تجاوزت أعمالهم، فوجدنا أصولاً لكثير مما لم يجد الزبيدي. وبقيت أحاديث يسيرة نقلها الغزالي من كتب كـ«تهذيب الأسرار» لعبد الملك الخركوشي (ت ٤٠٦ هـ) و«قوت القلوب» لأبي طالب المكي (ت ٣٨٦ هـ) ورسائل ابن أبي الدنيا المغمورة، وبعضها من الحارث المحاسبي بغير سند. والغزالي سار على مذهب شيخه إمام الحرمين في جواز التقليد في الحديث إذا قال إمام: مخرج. فبقيت أحاديث قليلة جدًا – نحو ٢٠ من ٥٦٠٠ – مال العلماء إلى القول بوضعها. أفيطعن في كتاب من أجل ٢٠ حديثًا؟ والحديث الضعيف ليس كالموضوع، فالإمام أحمد عمل بالضعيف في الظنيات مع عدم المرجح. وكثير من كتب السنة فيها موضوعات متفق عليها: مسند أحمد فيه ثمانية، وابن ماجه، والمستدرك. فهل نرميها؟ أعوذ بالله! هذا كلام لا يقوله إلا عابث بدين الله.

فقولوا لمن يطعن في الإحياء: لو نظرتم نظر إنصاف وعلم، وكنتم تعرفون صنعة الحديث التي

تـدَّعونها، لمـا قلتم مـا تسـمعون. هـذه كلمـة آثمـة: «كبرت كلمة تخرج من أفواههم».

وإنَّ هذا الكتـابَ الموسـومَ بــ «المُنقَّى من المُنتقَى من كتاب إحياء علوم الدين» قد أُلفَ ليكـونَ صـفوةَ الصفوة، وخُلاصَةَ ما جاد به الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين، يجمعُ لُباب المعاني، ويقرِّبُ دُرَر الحكمِ إلى أيدي الطالبين، رجاءَ أن ينتفع به من ضاقَ وقتُه عن مطالعـة الأصـل، ولم يُـرِد أن يُحـرَم من فيضـه وغزير علمه.

أسألُ اللهَ الكريمَ الجليلَ أن يُفيض علينا من بركـاتِ هـذا الكتـاب، وأن يجعـلَ لنـا من علومـه نصـيبًا في العمــل، ومن آدابــه حظًّا في الســلوك، وأن يجــزيَ الإمامَ الغزاليَّ عن أمةِ محمدٍ خيرَ الجزاء، ويغفرَ لـه ما اجتهدَ فيه فأخطأ، ويجمعنا بـه في زمـرةِ العلمـاءِ العاملين، تحتَ لواءِ سيد المرسلين .

وصـلى اللـه على سـيدنا محمـدٍ وعلى آلـه وصـحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين

جامع الكتاب ومُلخِّصه:

فهد بن عبد العزيز بن عبد الله الشويرخ

جامع المقدمة:
أبي ميدان
فخر الرازي بن محمد بن إلياس بن عثمان

كُتِبَ في دار الحكمـة، في بوناغـا رايـوك، مولابـوه، آتشيه الغربية
في يوم الجمعة، ٢٤ أكتوبر سنة ٢٠٢٥ ميلادية

الربع الأول: ربع العبادات

كتاب العلم

فضيلة العلم والتعلم والتعليم:

شواهدها من القـرآن قولـه عـز وجـل: (يرفـع اللـه الــذين آمنــوا منكم والــذين أوتــوا العلم درجــات) [المجادلـة:11]وقـال عـز وجـل(هـل يسـتوي الـذين يعلمون والذين لا يعلمون) [الزمر:9] وقـال تعـالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء) [فاطر:28]

وأمـا الأخبـار: فقـال رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: (من يـرد اللـه بـه خـيراً يفقـه في الـدين) وقال صلى الله عليه وسلم:

(العلماء ورثة الأنبياء)

وقال صـلى اللـه عليـه وسـلم: (فضـل العـالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب)

وقـال صـلى اللـه عليـه وسـلم: (إذا مـات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علم ينتفع به....الحديث)

وقـال عليـه الصـلاة والسـلام: (الـدال على الخـير كفاعله)

وقــال صــلى اللــه عليــه وســلم: (لا حســد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله عز وجـل حكمـة، فهـو يقضـي بها، ويعلمها الناس، ورجـل آتـاه اللـه مـالاً، فسـلطه على هلكته في الخي)

وأما الآثار: فقد قال علي بن أبي طالب رضـي اللـه عنــه: العلم خــير من المــال، العلم يحرســك وأنت تحرس المال. والعلم حـاكم والمـال محكـوم عليـه، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق.

وقال العالم أفضل من الصائم القائم المجاهــد، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسـدها إلا خلـف منه.

قــال ابن عبــاس رضــي اللــه عنهمــا: ذللت طالبــاً فعززت مطلوباً.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنـه: تـذاكر العلم بعض ليلة أحب إلي من إحيائها.

وقال ابن المبارك: عجبت لمن لم يطب العلم كيـف تدعوه نفسه إلى مكرمة؟

وقال فتح الموصلي: أليس المريض إذا منع الطعـام والشراب والدواء ثلاثة أيام يموت؟ قالوا: بلى. قال: كذلك القلب إذا منع الحكمـة عنـه والعلم ثلاثـة أيـام يموت.

ولقد صدق فإن غـذاء القلب: العلم والحكمـة وبهمـا حياته، كما أن غذاء الجسد الطعام، ومن فقــد العلم فقلبه مريض وموته لازم ولكنه لا يشـعر بـه، إذ حب الدنيا وشغله بها أبطل إحساسه.

وقيــل لبعض الحكمــاء: أي الأشــياء تقتــني؟ قــال: الأشياء التي إذا غرقت سفينتك سبحت معك. يعني: العلم.

وقال بعضهم: من اتخذ الحكمة لجاماً اتخـذه النـاس إماماً. ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار.

وقال الشافعي: من شرف العلم أن كـل من نُسـب إليه ولو في شيء حقير فرح، ومن رفع عنه حزن.

وقــال الزبــير بن أبي بكــر: كتب إلي أبي بــالعراق: عليك بـالعلم فإنـك إن افتقـرت كـان لـك مـالاً، وإن استغنيت كان لك جمالاً.

وقال لقمان لابنه: يا بـني، جـالس العلمـاء وزاحمهم بركبتك، فإن الله سبحانه يحيى القلوب بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل السماء.

وقـال أبـو الـدرداء رضـي اللـه عنـه: كن عالمـاً، أو متعالماً، أو مستمعاً، ولا تكن الرابع فتهلك.

وقال الشافعي: طلب العلم أفضل من النافلة.

وقيل أول العلم: الصمت ثم الاستماع ثم الحفـظ ثم العمل ثم نشره.

وقال يحيى بن معاذ: العلماء أرحم بأمة محمد صلى الله عليه وسلم من آبائهم وأمهاتهم.

قيل: كيف ذلك.؟

قال: لأن آبائهم وأمهاتهم يحفظـونهم من نـار الـدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة.

وقـال بعضـهم: العلمـاء سـرج الأزمنـة، كـل واحـد مصباح زمانه، يستضيء به أهل عصره.

وسئل ابن المبارك: من الناس؟ فقال: العلماء.

فلم يجعل غير العالم من الناس، لأن الخاصـية الـتي يتمـيز بهـا النـاس عن سـائر البهـائم هـو العلم، فالإنسان إنسان بما هـو شـريف لأجلـه، وليس ذلـك بقوة شخصه، فإن الجمل أقوى منه، ولا بعظمه فإن الفيل أعظم منـه، ولا بشـجاعته فـإن السـبع أشـجع

منه، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطناً منـه، ولا ليجـامع فإن أخسّ العصافير أقوى على السفاد منه.

إن أدنى درجات الفقيه أن يعلم أن الآخـرة خـير من الدنيا، وهذه المعرفة إذا صـدقت وغلبت عليـه بـرئ بها من النفاق والرياء.

والعلم حيـاة القلـوب من العمى، ونـور الأبصـار من الظلم، وقـوة الأبـدان من الضـعف، يبلـغ بـه العبـد منازل الأبـرار والـدرجات العلى،...بـه يعـرف الحلال والحرام، وهو إمـام والعمـل تابعـه، يلهمـه السـعداء ويحرمه الأشقياء،

نسأل الله حسن التوفيق.

آداب المتعلم:

1-طهـــارة النفس عن رذائـــل الأخلاق ومـــذموم الأوصاف والصفات الرديئة مثـل: الغضـب والشـهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها.

2- أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا.

3- أن لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على معلم.

4- أن لا يخـوض في فن من فنـون العلم دفعـة بـل يراعي الترتيب ويبتدئ بالأهم.

5- أن لا يخـوض في فن حـتى يسـتوفي الفن الـذي قبله، فإن العلوم بعضها طريق إلى بعض، والموفــق من راعى ذلك الترتيب والتدرج.

6- أن لا يقصــد الرياســة والمــال والجــاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران

العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة:

من المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقــة بين علماء الـدنيا، وعلمـاء الآخـرة، ونعـنى بعلمـاء الـدنيا علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا، والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها. قال الفضيل بن عياض رحمه اللـه: إني لأرحم ثلاثـة: عزيـز قـوم ذل، وغني قوم افتقر، وعالماً تلعب به الدنيا.

وقال الحسـن عقوبـة العلمـاء مـوت القلب، ومـوت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة.

وعلماء الآخرة لهم علامات:

فمنها: أن لا يخالف فعله قوله، بـل لا يـأمر بالشـيء ما لم يكن هو أول عامل به. قال الله تعالى:

(أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم)]البقــرة: 44 [

ومنهـا: أن تكـون عنايتـه بتحصـيل العلم النـافع في الآخرة المـرغب في الطاعـات مجتنبـاً للعلـوم الـتي يقل نفعها.

ومنها: أن لا يطلب الدنيا بعلمه.

ومنها: أن يكون مستقصياً عن السلاطين فلا يدخل عليهم ألبته مادام يجد إلى الفرار عنهم سبيلاً. بل ينبغي أن يحترز من مخالطتهم وإن جاءوا إليه، فإن الدنيا حلوة خضرة وزمانها بأيدي السلاطين.

ومنها: لا يكون مسارعاً إلى الفتيا بل يكون متوقفاً ومحترزاً ما وجد إلى الخلاص سبيلاً ومنها: أن يكون غير مائل إلى الترفه والتنعم. والتجمل بل يؤثر الاقتصاد

ومنها: أن يظهر أثر الخشية على هيئته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكوته، فعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم في السكينة والتواضع.

ومنها: أن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور، وليكن حريصاً على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم.

وظائف المعلم:

1-الشفقة على المتعلمين، وأن يجريهم مجرى بنيه...بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة، وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا.

2- لا يطلب على إفادة العلم أجراً، ولا يقصد به جزاء ولا شكراً، بل يعلم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه.

3- أن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً...فينبـه على أن الغـرض بطلب العلـوم القـرب إلى اللـه تعـالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة.

4- أن يزجـــر المتعلم عن ســـوء الأخلاق بطريـــق التعـريض مـا أمكن ولا يصـرح. وبطريـق الرحمـة لا بطريق التوبيخ.

5- أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليـه ما لا يبلغه عقله فينفره.

كتاب أسرار الطهارة

الحمد لله الـذي تلطـف بعبـاده فتعبـدهم بالنظافـة، قـال اللـه تعـالى: (فيـه رجـال يحبـون أن يتطهـروا والله يحب المطهرين) [التوبـة:108] وقـال تعـالى: (مـا يريـد اللـه ليجعـل عليكم من حـرج ولكن يريـد ليطهركم) [المائدة:6]

يبعد أن يكون المراد بقولـه عليـه الصـلاة والسـلام: (الطهور نصـف الإيمـان) عمـارة الظـاهر بـالتنظيف بإفاضــة المــاء وإلقائــه، وتخــريب البــاطن وإبقائــه مشحوناً بالأخباث والأقذار هيهات هيهات.

مراتب الطهارة:

المرتبــة الأولى: تطهـير الظـاهر عن الأحـداث وعن الأخباث والفضلات.

المرتبة الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

المرتبة الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

فضيلة الوضوء:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشي من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)

وقال عليه الصلاة والسلام: (ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، ونقل الأقدام إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط ثلاث مرات)

وقال عمر رضي الله عنه: إن الوضوء الصالح يطرد عنك الشيطان.

وقال مجاهد: من استطاع أن لا يبيت إلا طاهراً ذاكراً مستغفراً فليفعل، فإن الأرواح تبعث على ما قبضت عليه.

كتاب أسرار الصلاة

الصلاة عماد الدين، ورأس القربات، وغرة الطاعات.

فضيلة المكتوبة:

قال رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: (خمس صـلوات كتبهن اللـه على العبـاد، فمن جـاء بهن ولم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن، كان له عنـد اللـه عهـد أن يدخلـه الجنـة، ومن لم يـأت بهن فليس لـه عند الله عهد، إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة)

وقال عليه الصلاة والسلام: (مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات، فما ترون ذلك يبقى من درنـه، قـالوا: لا شيء، قال: فإن الصلوات الحمس تذهب الـذنوب كما يذهب الماء الدرن.)

وسئل صلى الله عليـه وسـلم: أي الأعمـال أفضـل؟ قال: الصلاة على وقتها.

فضيلة الجماعة:

قال صلى الله عليه وسلم: (صلاة الجماعـة تفضـل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة)

وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم فقد ناساً في بعض الصلوات فقال: (لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالنـاس ثم أخـالف إلى رجـال يتخلفـون عنهـا فأحرق عليهم بيوتهم.)

قال سعيد بن المسيب: ما أذن مـؤذن منـذ عشـرين سنة إلا وأنا في المسجد.

فضيلة الخشوع وحضور القلب:

اعلم أن أدلـة ذلـك كثـيرة فمن ذلـك قولـه تعـالى: (وأقم الصـلاة لـذكري) [طـه:14] وظـاهر الأمـر الوجوب، والغفلة تضاد الذكر، فمن عفـل في جميـع صلاته فكيف يكون مقيماً للصلاة لذكره.

كتاب أسرار الزكاة

اللـــه تعـــالى جعـــل الزكـــاة إحـــدى مبـــاني الإسلام....وشدد الوعيد على المقصرين فيها، فقال: (والـذين يكـنزون الـذهب والفضـة ولا ينفقونهـا في سـبيل اللـه فبشـرهم بعـذاب أليم) [التوبـة:34] ومعنى الإنفاق في سبيل الله إخراج حق الزكاة.

آداب المزكي:

اعلم أن على مريد طريق الآخرة بزكاته وظائف:

الوظيفة الأولى: التطهير من صفة البخـل، فإنـه من المهلكـات، قـال تعـالى: (ومن يـوق شـح نفسـه فأولئك هم المفلحون) [الحشر:9]

وقـال رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: (ثلاث مهلكات: شح مطـاع، وهـوى متبـع، وإعجـاب المـرء بنفسه)

الوظيفة الثانية: التعجيل عن وقت الوجـوب إظهـاراً للرغبـة في الامتثـال بإيصـال السـرور إلى قلـوب الفقـراء، ومبـادرة لعوائـق الزمـان أن تعـوق عن الخيرات

الوظيفة الثالثة: الإسرار، فإن في ذلك أبعد عن الرياء والسمعة. قال تعالى: (وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) [البقرة:271]

الوظيفة الرابعة: أن يظهر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيباً للناس في الاقتداء، قال الله عز وجل: (إن تبدوا الصدقات فنعما هي) [البقرة: 271]

الوظيفة الخامسة: أن لا يفسد صدقته بالمن والأذى، قال الله تعالى: (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) [البقرة:264]

الوظيفة السادسة: شكر النعمة، فإن لله عز وجل على عبده نعمة في نفسه، وفي ماله.

الوظيفة السادسة: أن يستصغر العطية، فإنه إن استعظمها أُعجب بها، والعجب من المهلكات، وهو محبط للأعمال، قال تعالى: (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً) [التوبة:25]

ويُقال إن الطاعة كلما استصغرت عظمت عند الله عز وجل، والمعصية كلما استعظمت صغرت عند الله عز وجل.

وقيل: لا يتم المعروف إلا بثلاثة أمور: تصغيره، وتعجليه، وستره.

الوظيفة السابعة: أن ينتقى من ماله...أطيبه فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيب

وظائف القابض:

الأولى: أن يعلم أن اللــه عــز وجــل أوجب صــرف الزكاة إليه ليكفي همه،...فليأخذ ما يأخذه...رزقاً لـه وعوناً على الطاعة،...فإن استعان بـه معصية الله كــان كــافراً لأنعم اللــه عزوجــل، مســتحقاً للبعــد والمقت من الله سبحانه.

الثانية: أن يشكر المعطي ويدعو له، ويثني عليه.

الثالثة: أن ينظر فيمـا يأخـذه، فـإن لم يكن من حـل تورع عنه.(ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتســـب) [الطلاق:2_3] ولن يعـــدم المتورع عن الحرام فتوحاً من الحلال.

الرابعة: أن يتوقى مواقع الريبة والاشتباه في مقدار ما يأخذه، فلا يأخذ إلا المقدار المباح، ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق.

فضل صدقة التطوع:

قال رسول الله عليه الصلاة والسـلام: (اتقـوا النـار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة)

وقال صلى الله عليـه وسـلم: (مـا من عبـد مسـلم يتصـدق بصـدقة من كسـب طيب، ولا يقبـل اللـه إلا

طيباً إلا كـان اللـه أخـذها بيمينـه فيربيهـا كمـا يـربي أحدكم فصيله حتى تبلغ التمرة مثل أحد)

قال لقمان لابنه: إذا أخطأت خطيئة فأعط الصدقة.

قـال عبـدالعزيز بن أبي رواد: كـان يقـال ثلاثـة من كنـوز الجنـة: كتمـان المـرض، وكتمـان الصـدقة، وكتمان المصيبة.

إخفاء الصدقة:

الإخفاء فيه معان:

الأول: أنه أبقى للستر على الآخذ، فإن أخذه ظاهراً، هتك لسـتر المـروءة، وكشـف عن الحاجـة، وخـروج عن هيئة التعفف والتصون المحبوب، الـذي يحسـب الجاهل أهله أغنياء من التعفف.

الثاني: أنـه أسـلم لقلـوب النـاس وألسـنتهم، فـإنهم ربما يحسدون، أو ينكرون عليه أخـذه، ويظنـون أنـه آخـذ مـع الاسـتغناء، أو ينسـبونه إلى أخـذ زيـادة، والحسـد وسـوء الظن والغيبـة من كبـائر الـذنوب، وصيانتهم عن هذه الجرائم أولى.

الثـالث: إعانـة المعطي على إسـرار العمـل، فـإن فضل السر على الجهر في الإعطـاء أكـثر، والإعانـة على إتمام المعروف معروف.

الرابـع: أن في إظهـاره الأخـذ ذلاً وامتهانـاً، وليس للمؤمن أن يذل نفسه.

كتاب أسرار الصوم

الحمد لله الـذي أعظم على عبـاده المنـة، بمـا دفـع عنهم كيد الشيطان،...إذ جعل الصوم حصـناً لأوليائـه وجُنّة، وفتح لهم به أبـواب الجنـة. قـال اللـه تعـالى: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) [الزمـر: 10] والصوم نصف الصبر.

وقال رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم: (والـذي نفسي بيده لخلوف فم الصـائم أطيب عنـد اللـه من ريح المسك، يقول الله عز وجـل: إنمـا يـذر شـهوته وطعامه وشرابه لأجلي، فالصوم لي وأنا أجزي بـه.) وقال صلى الله عليه وسلم: (للجنـة بـاب يقـان لـه الريان، لا يدخله إلا الصـائمون.) وقـال عليـه الصـلاة والسـلام: (للصـائم فرحتـان، فرحـة عنـد إفطـاره، وفرحة عند لقاء ربه.)

صوم الصالحين:

صوم الصالحين...تمامه بستة أمور:

الأول: غض البصر...إلى كل ما يذم ويكره، وإلى كل ما يشغل القلب عن ذكر الله.

الثاني: حفظ اللسـان عن الهـذيان والكـذب والغيبـة والنميمة والفحش والخصومة

الثالث: كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكـروه لأن كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه

الرابـع: كـف الجـوارح عن الآثـام من اليـد والرجـل، وكف البطن عن الشـبهات وقت الإفطـار فلا معـنى للصـوم وهـو الكـف عن الطعـام الحلال ثم الإفطـار على الحرام.

الخــامس: أن لا يســتكثر من الطعــام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلئ جوفه.

السادس: أن يكون قلبه معلقاً بين الخوف والرجـاء، إذ ليس يـدري أيقبـل صـومه فهـو من المقـربين، أو يرد عليه فهو من الممقوتين.

كتاب أسرار الحج

آداب الحاج:

الأول: أن تكون النفقة حلالاً، وتكون اليـد خاليـة من تجارة تشغل القلب وتفرق الهم، حـتى يكـون القلب مطمئنــاً منصــرفاً إلى ذكــر اللــه تعــالى، وتعظيم شعائره.

الثــاني: التوسـع في الــزاد، وطيب النفس بالبــذل، والإنفــاق، من غــير تقتــير، ولا إســراف، وأعــنى بالإسراف: التنعم بأطيب الأطعمة، والترفـه بشـرب أنواعها، على عادة المـترفين. فأمـا كـثرة البـذل فلا سـرف فيـه، إذ لا خـير في السـرف، ولا سـرف في الخير، كما قيل.

الثالث: ترك الـرفث والفسـوق والجـدال. والـرفث: اسـم جـامع لكـل لغـو وخـنى، وفحش في الكلام، ويـدخل فيـه مغازلـة النسـاء ومـداعبتهن، والتحـدث بشأن الجماع ومقدماته.

والفسق: اسم جامع لكل خروج عن طاعة اللـه عـز وجل.

والجدال: هو المبالغـة في الخصـومة والممـاراة بمـا يورث الضغائن،...فلا ينبغي أن يكون كثير الاعـتراض على رفيقـه، وعلى غـيره، بـل يلين جناحـه، ويخض جناحـه، للسـائرين إلى بيت اللـه عـز وجـل، ويلـزم حسن الخلـق، وليس حسـن الخلـق كـف الأذى، بـل احتمال الأذى.

الرابع: أن يكون غـير مسـتكثر من الزينـة، ولا مائـل إلى أسباب التفاخر والتكاثر.

الخامس: أن يكون طيب النفس بما أنفقه من نفقـة وهدي....فكل خسـران أصـابه ثـواب فلا يضـيع منـه شيء عند الله عز وجل.

من علامة قبول الحج:

يقال إن من علامة قبول الحج ترك ما كان عليه من المعاصــي، وأن يتبــدل بإخوانــه البطــالين إخوانــاً صـالحين، وبمجـالس اللهـو والغفلـة مجـالس الـذكر واليقظة.

الاعتبار بأعمال الحج:

لا تغفل عن أمور الآخرة في شيء مما تراه، فإن كل أحوال الحاج دليل على أحوال الآخرة.

وليعظم في نفسه قدر البيت، وقدر رب البيت، وليعلم أنه عزم على أمر رفيع شأنه، خطير أمره....وليجعل عزمه خالصاً لوجه الله سبحانه، بعيداً عن شوائب الرياء والسمعة، وليتحقق أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص.

فإن كنت راغباً في قبول زيارتك، فنفذ أوامره، وردّ المظالم، وتب إليه أولاً من جميع المعاصي،....وتذكر عند....السفر للحج....السفر للآخرة فإن ذلك بين يديه على القرب،...فلا ينبغي أن تغفل عن ذلك السفر عند الاستعداد لهذا السفر.

الزاد:

ليطلبه من موضع حلال...وليتذكر أن سفر الآخرة أطول من هذا السفر، وأن زاده التقوى وأن ما عداه مما يظن أنه زاده يتخلف عنه عند الموت، ويخونه فلا يبقى معه...فليحذر أن تكون أعماله التي هي زاده إلى الآخرة لا تصحبه بعد الموت، بل يفسدها شوائب الرياء وكدورات التقصير.

الراحلة:

ليشكر الله بقلبه على تسخير الله عز وجل له لتحمل عنه الأذى وتخفف عنه المشقة، وليتذكر

عنـده المـركب الـذي يركبـه إلى دار الآخـرة، وهي الجنازة التي يحمل عليها.

ثوبي الإحرام:

ليتذكر عنده الكفن، ولفه فيه.

الخروج من البلد:

ليعلم عنده أنه فارق الأهـل والـوطن....في سـفر لا يضاهي أسفار الدنيا، فليحضـر في قلبـه مـاذا يريـد، وأين يتجه، وزيارة من يقصد؟ وأنه متوجه إلى ملــك الملوك في زمرة الزائرين له، الـذين نـودوا فأجـابوا وليحضـر في قلبـه رجـاء الوصـول والقبـول لا إدلالاً بأعماله.

ولــيرج أنــه إن لم يصــل إليــه وأدركتــه المنيــة في الطريق، لقي الله عز وجل وافداً إليـه، إذ قـال جـل جلالــه: (ومن يخــرج من بيتــه مهــاجرا إلى اللــه ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على اللـه) [النساء:100]

الإحرام والتلبية من الميقات:

ليعلم أن معناه إجابة نداء اللـه عـز وجـل، فـارج أن تكــون مقبــولاً، واخش أن يقــال لــك لا لبيــك، ولا ســعديك، فكن بين الرجــاء والخــوف مــتردداً، وعن حولـك وقوتـك متبرئـاً، وعلى فضـل اللـه عـز وجـل وكرمه متكلاً.

الطواف بالبيت:

أحضـر في قلبـك فيـه التعظيم، والخـوف، والرجـاء، والمحبة.

الوقوف بعرفة:

اذكر بما ترى من ازدحـام الخلـق وارتفـاع الأصـوات واختلاف اللغات عرصات القيامة، واجتماع الأمم مـع الأنبياء، واقتفاء كـل أمـة بنبيهـا....وإذ تـذكرتك ذلـك فالزم قلبك الضراعة والابتهال إلى الله عز وجل.

رمي الجمار:

اقصد به الانقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية.

كتاب آداب تلاوة القرآن

الحمـد للـه الـذي امتن على عبـاده بنبيـه المرسـل صـلى اللـه عليـه وسـلم وكتابـه المـنزل، (لا يأتيـه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه تنزيـل من حكيمٍ حميدٍ) [فصـلت:42] وقـال تعـالى: (إنـا نحن نزلنـا الذكر وإنا لـه لحـافظون) [الحجـر:9] ومن أسـباب حفظـه في القلـوب والمصـاحف اسـتدامة تلاوتـه، والمواظبة على دراسته.

آداب التلاوة:

الأول: التعظيم للمتكلم، فالقارئ عنـد البدايـة بتلاوة القـرآن ينبغي أن يحضـر في قلبـه عظمـة المتكلم، ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر.

الثـاني: حضـور القلب، وتـرك حـديث النفس، وكـان بعض السلف إذا قـرأ آيـة لم يكن قلبـه فيهـا أعادهـا ثانية.

الثالث: التدبر، فالمقصود من القـراءة التـدبر،...وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد.

الرابـع: التخلي عن موانـع الفهم، فـإن أكـثر النـاس منعــوا من تفهم معــاني القــرآن لأســباب وحجب أســدلها الشـيطان على قلـوبهم...منهـا: أن يكـون مصـــراً على ذنب، أو متصـــفاً بكـــبر، أو مبتلى في الجملة بهوى الـدنيا مطـاع، فـإن ذلـك سـبب ظلمـة القلب وصــدئه....وهــو أعظم حجــاب للقلب، وبــه حجب الأكثرون.

الخـامس: أن يقـدر أنـه المقصـود بكـل خطـاب في القـرآن، فـإن سـمع أمـراً أو نهيـاً، قـدّر أنـه المنهي والمأمور، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك.

السادس: أن يتأثر قلبه. قال وهيب بن الورد: نظرنـا في هـذه الأحـاديث والمواعـظ، فلم نجـد شـيئاً أرق للقلوب...من قراءة القرآن وتفهمه وتدبره.

كتاب الأذكار والدعوات

ليس بعـد تلاوة كتـاب اللـه عـز وجـل عبـادة تـؤدى باللسان أفضل من ذكر الله تعـالى، ورفـع الحاجـات بالأدعية الخالصة إلى الله تعالى.

آداب الدعاء:

الأول: أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة، كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الأشهر، ويوم الجمعة من الأسبوع، ووقت السحر من ساعات الليل، قال تعالى: (وبالأسحار هم يستغفرون) [الذاريات:18] وقال صلى الله عليه وسلم: (ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول عز وجل: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له)

الثاني: أن يغتنم الأحوال الشريفة. قال صلى الله عليه وسلم: (الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد) وقال عليه الصلاة والسلام: (الصائم لا ترد دعوته)

وقال صلى الله عليه وسلم: (أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء)

قال أبو هريرة رضي الله عنه: إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف في سبيل الله، وعند نزول الغيث وعند إقامة الصلوات المكتوبة، فاغتنموا الدعاء فيها

الثالث: أن يدعو مستقبل القبلة، ويرفع يديه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن ربكم حيي كريم، يستحي من عبيده إذا رفعوا أيديهم إليه أن يردها صفراً.)

الرابع: خفض الصوت بين المخافتة والجهر، قال عز وجل: (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) [الإسراء: 110] أي: بدعائك، وقد أثنى الله عز وجل على نبيه زكريا عليه السلام، حيث قال: (إذ نادى ربه نداءً خفياً) [مريم:3]

[20]

الخامس: أن لا يتكلف السجع في الدعاء، فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال متضرع، والتكلف لا يناسبه. قال بعضهم: ادع بلسان الذلة والافتقار، لا بلسان الفصاحة والانطلاق.

السادس: التضرع والخشوع، والرغبة والرهبة، قال الله تعالى: (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً) [الأنبياء:90] وقال عز وجل: (ادعوا ربكم تضرعاً وخفيةً) [الأعراف:55]

السابع: أن يجزم بالدعاء، ويوقن بالإجابة، ويصدق رجاءه فيه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يقل أحدكم إذا دعا: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة، فإنه لا مكره له.)

الثامن: أن يلح في الدعاء، ويكرر ثلاثاً. قال ابن مسعود رضي الله عنه: كان عليه السلام إذا دعا، دعا ثلاثاً، وإذا سأل، سأل ثلاثاً.) وينبغي أن لا يستبطئ الإجابة لقوله صلى الله عليه وسلم:

(يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: قد دعوت فلم يستجب لي.)

التاسع: أن يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل، فلا يبدأ بالسؤال، قال أبو سلمة الدارني رحمه الله: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يسأله حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

العاشر: وهو الأصل في الإجابة: التوبة، وردّ المظالم، والإقبال على الله عز وجل فلذلك هو السبب القريب في الإجابة. قال العباس رضي الله عنه: لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة.

كتاب الأوراد وقيام الليل

الله تعالى جعل الأرض ذلولاً لعباده لا ليستقروا في مناكبها، بل ليتخذوها منزلاً فيتزودوا منها زاداً يحملهم في سفرهم إلى أوطانهم، ويكتنزون منها تحفاً لنفوسهم عملاً وفضلاً، محترزين من مصايدها ومعاطبها، ويتحققون أن العمر يسير بهم سير السفينة براكبها. فالناس في هذا العالم سفر، وأول منازله المهد، وآخرها اللحد، والوطن هو الجنة والنار. والعمر مسافة السفر، فسنوه مراحله، وشهوره فراسخه، وأيامه أمياله، وأنفاسه خطواته، وطاعته بضاعته، وأوقاته رءوس أمواله، وشهواته

وأغراضه قطاع طريقه، وربحه الفوز بلقاء الله تعالى في دار السلام، مع الملك الكبير، والنعيم المقيم، وخسرانه البعد من الله تعالى مع الأنكال والأغلال والعذاب الأليم في دركات الجحيم

فالغافل في غير طاعة تقرّبه إلى الله زلفى، متعرض في يوم التغابن لغبينة، وحسرة ما لها منتهى، ولهذا الخطر العظيم، والخطب الهائل، شمر الموفقون عن ساق الجدّ، وودعوا بملاذ النفس، واغتنموا بقايا العمر، حرصاً في طلب القرب من الملك الجبار، والسعي إلى دار القرار.

واعلم...أنه لا نجاة إلا في لقاء الله تعالى، وأنه لا سبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد محباً لله تعالى، وعارفاً بالله سبحانه. وأن المحبة والأنس لا تحصل إلا من دوام الذكر والمواظبة عليه....فمن أراد....أن تترجح كفة حسناته، وتثقل موازين خيراته فليستوعب في الطاعة أكثر أوقاته، فإن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فأمره مخطر، ولكن الرجا غير منقطع، والعفو من كرم الله منتظر، فعسى الله تعالى أن يغفر له بجوده وكرمه.

فضيلة قيام الليل:

أما الآيات: فقوله تعالى: (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل) [المزمل:20] وقوله سبحانه

وتعالى: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) [السجدة: 16] وقوله تعالى: (استعينوا بالصبر والصلاة) [البقرة:153]

ومن الأخبار: قوله صلى الله عليه وسلم: (يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب مكان كل عقدة عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان) وفي الخبر أنه ذكر عنده رجل ينام كل الليل حتى يصبح فقال: (ذاك رجل بال الشيطان في أذنه)

وفي الصحيح عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيراً إلا أعطاه الله إياه.)

وقال صلى الله عليه وسلم: (من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين، كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات)

وقال علية الصلاة والسلام:(أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل)

قال المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تفطرت قدماه،

فقيل له: أما قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً.

ومن الآثار: كان ابن مسعود رضي الله عنه، إذا هدأت العيون قام فيسمع له دوي كدوي النحل. قيل للحسن: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوها؟ قال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره.

الأسباب الميسرة لقيام الليل:

الأول: أن لا يكثر الأكل، فيكثر الشرب، فيغلبه النوم، ويثقل عليه القيام.

الثاني: أن لا يتعب نفسه بالنهار في الأعمال التي تعيا بها الجوارح، وتضعف بها الأعصاب، فإن ذلك أيضاً مجلبة للنوم.

الثالث: أن لا يترك القيلولة بالنهار، فإنها سنة للاستعانة على قيام الليل.

الرابع: أن لا يحتقب الأوزار بالنهار، فإن ذلك مما يقسي القلب، ويحول بينه وبين أسباب الرحمة. قال رجل للحسن: يا أبا سعيد، إني أبيت معافي، وأحب قيام الليل، وأعدّ طهوري، فما لي لا أقوم؟ قال: ذنوبك قيدتك.

فالذنوب كلها تورث قساوة القلب، وتمنع من قيام الليل، وأخصها بالتأثير تناول الحرام. قال بعضهم: كم من أكلة منعت من قيام الليل.

وكما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فكـذلك الفحشاء تنهى عن الصلاة وسائر الخيرات.

الخامس: سلامة القلب من الحقـد على المسـلمين، وعن البدع، وعن فضول همـوم الـدنيا، فالمسـتغرق الهم بتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام.

السادس: خوف يلزم القلب، مع قصـر الأمـل، فإنـه إذا تفكــر في أهــوال الآخــرة، ودركـات جهنم طــار نومه، وعظم حذره.

السابع: أن يعرف فضـل قيـام الليـل بسـماع الآيـات والأخبار والآثار حتى يستحكم به رجاؤه وشــوقه إلى ثوابــه، فيهيجــه الشــوق لطلب المزيــد والرغبــة في درجات الجنان.

الثامن: وهو أشرف البواعث الحب للــه...فـإذا أحب الله تعالى أحب لا محالة...التلذذ بالمناجـاة، فتحملـه لذة المناجاة...على طول القيام.

الربع الثاني: ربع العادات

كتاب آداب الأكل

العلم والعمل لا تمكن المواظبـة عليهمـا إلا بسـلامة البــدن، ولا تصــفو ســلامة البــدن إلا بالأطعمــة والأقوات، والتناول بقدر الحاجة على تكرر الأوقات.

فمن يقــدم على الأكــل ليســتعين بــه على العلم والعمل، ويقوى به على التقـوى، فلا ينبغي أن يـترك

نفسه مهملاً سدى، يسترسـل في الأكـل استرسـال البهائم في المرعى.

الآداب التي تتقدم الأكل:

الأول: أن يكون الطعـام بعـد كونـه حلالاً في نفسـه، طيباً في جهة مكسبه.

الثاني: غسـل اليـد...لأن اليـد لا تخلـو عن لـوث في تعــاطي الأعمــال فغســلها أقــرب إلى النظافــة والنزاهة.

الثالث: أن يوضع الطعـام على السـفرة الموضـوعة على الأرض فهو أقرب إلى فعل رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم من رفعه على المائدة.

الرابـع: أن يحســن الجلســة على الســفرة، وكــان رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم يقـول: (لا أكـل متكئاً)

الخامس: أن ينـوى بأكلـه أن يتقـوى بـه على طاعـة الله تعالى. ويعزم مع ذلك على تقليل الأكل.

السادس: أن يرضي بالموجود من الرزق، والحاضــر من الطعام، ولا يجتهد في التنعم.

السابع: أن يجتهد قي تكثير الأيدي على الطعام قال رسول اللـه عليـة الصـلاة والسـلام: (اجتمعـوا على طعامكم يبارك لكم فيه)

الآداب حال الأكل:

أن يبدأ بـــــ " بسم الله " في أوله، وبـــــــ " الحمـد لله " في آخره، ويجهـر بـذلك ليـذكر بـه غـيره. وأن يأكل باليمنى. ويصغر اللقمة، ويجود مضغها. ومـا لم يبتلعها لم يمد اليد إلى الأخرى، فإن في ذلـك عجلـة في الأكل. وأن لا يذم مأكولاً، كان رسول الله صـلى الله عليه وسلم لا يعيب مأكولاً، كان إذا أعجبه أكله، وإلا تركه. وأن يأكل مما يليه، قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم: (كل مما يليـك)، وأن لا يأكـل من وسط الطعام. ولا ينفخ في الطعام الحار، بل يصـبر إلى أن يسـهل أكلـه. وأن لا يكـثر الشـرب في أثنـاء الطعام. قال رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: (إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخـذها، وليمـط مـا كـان بها من أذى، ولا يدعها للشيطان.)

وأما الشرب، فأدبه أن يأخذ الكوز بيمينه، ويقــول: " بسـم اللـه " ولا يشـرب قائمـاً، ولا مضـطجعاً، فإنـه صلى الله عليه وسـلم: " نهى عن الشـرب قائمـاً "، وروى أنه صلى اللـه عليـه وسـلم " شـرب قائمـاً "، ولعله كان لعذر. ولا يتنفس في الكوز، ويشــرب في ثلاثة أنفاس، يحمد اللـه في أواخرهـا، ويسـمى اللـه في أوائلها.

والكوز يدار على القوم يمنة، وقد شرب النبي صلى الله عليه وسلم لبناً، وأبـو بكـر رضـي اللـه عنـه عن شماله، وأعرابي عن يمينه، فناوله الأعرابي، وقــال: (الأيمن فالأيمن)

ما يستحب بعد الطعام:

يمسك قبل الشبع، ويلعق أصابعه، ثم يمسح بالمنديل، ثم يغسلها، ويشكر الله تعالى بقلبه على ما أطعمه، فيرى الطعام نعمة منه، قال الله تعالى: (كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله) [البقرة: 172] فإن أكل طعام الغير فليدع له، وإن أفطر عند قوم فليقل: أفطر عند الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصليت عليكم الملائكة.

كتاب آداب النكاح

الترغيب في النكاح:

أما من الآيات: فقد قال الله تعالى: (وأنكحوا الأيامى منكم) [النور:32] وقال تعالى في وصف الرسل ومدحهم: (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذريةً) [الرعد:38] ومدح أولياءه بسؤال ذلك في الدعاء، فقال: (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قُرة أعينٍ) [الفرقان: 74]

وأما الأخبار: فقوله صلى الله عليه وسلم: (من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصن للفرج، ومن لا، فليصم فإن الصوم له وجاء) وقال صلى الله عليه وسلم: (إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض، وفساد كبير)

وأما الآثار: فقال عمر رضـي اللـه عنـه: لا يمنـع من النكاح إلا عجز أو فجور.

فوائد النكاح:

الفائدة الأولى: الولد، والمقصود إبقاء النسل، وأن لا يخلــو العــالم من جنس الإنس. وفي التوصــل إلى الولد قربة من أربعة أوجه:

الأول: موافقة محبة الله بالسعي في تحصـيل الولـد إبقاء جنس الإنسان.

الثاني: السعي في محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورضاه بتكثير ما به مباهاته.

الثالث: أن يبقى بعده ولداً صالحاً يدعو له.

الرابع: أن يموت الولد قبله فيكون شـفيعاً لـه، قـال صلى الله عليه وسلم: (من مات له ثلاثة لم يبلغــوا الحلم، أدخله الله الجنة بفضل رحمته إيـاهم) قيـل: يا رسول واثنان؟ قال: (واثنان)

الفائدة الثانية: التحصن من الشيطان، ودفـع غوائـل الشهوة، وغض البصر، وحفظ الفرج...فالنكاح سبب دفــع غائلــة الشــهوة، فــإن الشــهوة إذا غلبت، ولم يقاومها قـوة التقـوى جـرت إلى اقتحـام الفـواحش. وقـد قـال رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم في دعائـه: (اللهم أعـوذ بـك من شـر سـمعي وبصـري وقلبي وشـر منـيي) فمـا يسـتعيذ منـه رسـول اللـه

صلى الله عليه وسلم كيف يجوز التساهل فيه لغيره.

ومن الطباع ما تغلب عليه الشهوة بحيث لا تحصنه المرأة الواحدة، فيستحب لصاحبها الزيادة على الواحدة إلى الأربع، وكان من الصحابة من له الثلاث والأربع، ومن كان له اثنتان لا يحصى، ومهماً كان الباعث معلوماً فينبغي أن يكون العلاج بقدر العلة، فالمراد تسكين النفس، فلينظر إليه في الكثرة والقلة.

الفائدة الثالثة: ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة، وإراحة للقلب، وتقوية له على العبادة، فإن النفس ملول، وهي عن الحق نفور لأنه خلاف طبعها، فلو كلفت المداومة بالإكراه على ما يخالفها جمحت، وإذا روحت باللذات في بعض الأوقات قويت ونشطت.

الفائدة الرابعة: تفريغ القلب عن تدبير المنزل...فإن الإنسان...لو تكفل بجميع أشغال المنزل لضاع أكثر أوقاته، ولم يتفرغ للعلم والعمل، فالمرأة الصالحة المصلحة للمنزل عون على الدين بهذه الطريق.

الفائدة الخامسة: مجاهدة النفس بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل، والصبر على أخلاقهن، واحتمال الأذى منهن، والسعي في إصلاحهن، وإرشادهن إلى طريق الدين، والاجتهاد في كسب

الحلال لأجلهن، والقيـام بتربيتـه الأولاده، فكـل هـذه أعمال عظيمة الفضل.

الخصال المطيبة للعيش:

الخصال المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المرأة ليدوم العقد وتتوفي مقاصده:

الأولى: أن تكون صالحة ذات دين، فهذا هـو الأصـل، وبه ينبغي الاعتناء، فإنها إن كانت ضعيفة الــدين في صيانة نفسـها وفرجهـا، أزرت بزوجهـا، وسـودت بين الناس وجهه، وشوشت بـالغيرة قلبـه، وتنغص بـذلك عيشه، فإن سلك سبيل الحمية والغيرة لم يـزل في بلاء ومحنة، وإن سلك سبيل التسـاهل كـان متهاونـاً بدينه وعرضه، ومنسوباً إلى قلة الحمية والأنفة.

الثانية حُسن الخُلق وذلك أصل مهم، فإنها إذا كـانت سليطة بذيئـة اللسـان، سـيئة الخلـق، كـافرة للنعم، كان الضرر منها أكثر من النفع.

الثالثـة: حسـن الوجـه، فـذلك أيضـاً مطلـوب، إذ بـه يحصل التحصن، والطبع لا يكتفى بالذميمة غالباً، وما نقلنــاه من الحث على الــدين، وأن المــرأة لا تنكح لجمالها ليس زاجر عن رعاية الجمال، بـل هـو زجـر عن النكـاح لأجـل الجمـال المحض مـع الفسـاد في الدين. قال عليه الصلاة والسلام: (خير نسائكم من إذا نظر إليها زوجها سرته، وإذا أمرهـا أطاعتـه، وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله.)

الرابعة: أن تكون خفيفة المهر وفي الخبر (من بركة المرأة، سرعة تزويجها، وسرعة رحمها [أي الولادة] ويسر مهرها) وكان عمـر رضـي اللـه عنـه ينهى عن المغالاة في الصداق.

الخامسة: أن تكون المرأة ولـوداً قـال عليـه الصـلاة والسلام: (عليكم بالولود الودود)

السادسة: أن تكون بكراً، قال عليه الصلاة والسـلام لجـابر رضـي اللـه عنـه، وقـد تـزوج ثيبـاً: (هلا بكـراً تلاعبها وتلاعبك)

السابعة: أن تكون من أهـل الـبيت والصـلاح...فإنهـا ستربى بناتها وبنيها.

آداب المعاشرة وما يجري في دوام النكاح:

على الزوج مراعاة الاعتدال والأدب:

فالأدب الأول: حسـن الخلـق معهن، واحتمـال الأذى منهن، ترحمـاً عليهن، لقصـور عقلهن، قـال اللـه تعـالى: (وعاشـروهن بـالمعروف) [النسـاء:19] واعلم أنه ليس حسن الخلق معهـا كـف الأذى عنهـا، بل احتمال الأذى منها، والحلم عند طيشها وغضـبها. اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كـانت أزواجه تراجعنه الكلام، وتهجره الواحـدة منهن يومـاً إلى الليل.

الثــاني: أن يزيــد على احتمــال الأذى بالمداعبــة، والمزح، والملاعبة، فهي التي تطيب قلـوب النسـاء. وقد كان رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم يمـزح معهن، روي أنه عليـه الصـلاة والسـلام كـان يسـابق عائشة في العدو، فسـبقته يومـاً، وسـبقها في بعض الأيام، فقـال عليـه الصـلاة والسـلام: (هـذه بتلـك) وقال صلى الله عليه وسلم: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله) وقـال لقمـان رحمـه الله: ينبغي للعاقل أن يكون في أهلـه كالصـبي، وإذا كان في القوم وجد رجلاً.

الثـالث: أن لا ينبسـط في الدعابـة، وحسـن الخلـق، والموافقــة باتبــاع هواهــا إلى حــد يفســد خلقهــا، ويسقط بالكليـة هيبتـه عنـدها، بـل يـراعي الاعتـدال فيه، فلا يدع الهيبة والانقبـاض مهمـا رأى منكـراً، ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات ألبته، بـل مهمـا رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمر وامتعض.

الرابع: الاعتـدال في الغـيرة، وهـو أن لا يتغافـل عن مبـادى الأمـور الـتي تخشـى غوائلهـا، ولا يبـالغ في إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن. قـال عليـه الصلاة والسلام: (إن من الغيرة غـيرة يبغضـها اللـه عز وجل، وهي غيرة الرحل على أهله في غير ريبة)

الخـامس: الاعتـدال في الإنفـاق، فلا ينبغي أن يقـتر عليهن في الإنفاق، ولا ينبغي أن يسرف، بل يقتصد، قــال تعــالى: (وكلــوا واشــربوا ولا تســرفوا) [الأعـراف:31] وقـال عـز وجـل: (ولا تجعـل يـدك

مغلولــة إلى عنقــك ولا تبســطها كــل البســط) [الإسراء:29]

وقال عليه الصلاة والسلام: (دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت بـه على مسكين، ودينـار أنفقتـه على أهلـك، أعظمهـا أجـراً: الذي أنفقته على أهلك)

وأهم مـا يجب مراعاتـه في الإنفـاق أن يطعمهـا من الحلال، ولا يـدخل مـداخل السـوء لأجلهـا، فـإن في ذلك جناية عليها، لا مراعاة لها.

الســـادس: أن يتعلم المـــتزوج من علم الحيض، وأحكامه ما يحترز به الاحتراز الواجب، ويعلم زوجته أحكـام الصـلاة....وأن يلقنهـا اعتقـاد أهـل السـنة، ويزيــل عن قلبهــا كــل بدعــة إن اســتمعت إليهــا، ويخوفهــا في اللــه إن تســاهلت في أمــر الــدين، ويعلمهـا من أحكـام الحيض والاستحاضـة مـا تحتـاج إليه.

السابع: أن كان له نسوة فينبغي أن يعدل بينهن، ولا يميل إلى بعضهن، قال رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم: (من كـان لـه امرأتـان فمـال إلى إحـداهما دون الأخـرى _ وفي لفـظ _ ولم يعـدل بينهمـا، جـاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل) وإنما عليه العـدل في العطـاء والمـبيت، وأمـا في الحب والوقـاع فـذلك لا يــدخل تحت الاختيــار، قــال اللــه تعــالى: (ولن تســتطيعوا أن تعــدلوا بين النســاء ولــو حرصــتم)

[النســاء:129] أي: أن تعــدلوا في شــهوة القلب، وميل النفس، ويتبع ذلك التفاوت في الوقـاع. وكـان رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم يعـدل بينهن في العطـاء، والبيتوتـة في الليـالي، ويقـول (اللهم هـذا جهدي فيما أملك ولا طاقة لي فيما تملك، ولا أملك) يعني: الحب

الثامن: النشوز، فـإذا وقـع بينهمـا خصـام ولم يلـتئم أمرهمــا، فــإن كــان من جانبهمــا جميعــاً، أو من الرجل...فلا بد من حكمين، أحدهما من أهله، والآخر من أهلها، لينظرا بينهما ويصلح أمرهما قـال تعـالى: (إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما) [النساء:35]

وأمـا إذا كـان النشـوز من المـرأة خاصـة فالرجـال قوامون على النسـاء، فلـه أن يؤدبهـا ويحملهـا على الطاعة، ولكن ينبغي أن يتـدرج في تأديبهـا، وهـو أن يقدم أولاً الوعظ والتحذير والتخويـف، فـإن لم ينجح ولاها ظهـره في المضـجع، فـإن لم ينجح ذلـك فيهـا ضـربها ضـرباً غـير مـبرح، ولا يضـرب وجههـا فـذلك منهي عنه، وقد قيل لرسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم: ما حق المرأة على الرجل؟ قـال: (يطعمهـا إذا طعم، ويكســوها إذا اكتســى ولا يقبح الوجــه ولا يضرب إلا ضرباً غير مبرح ولا يهجرها إلا في البيت.)

التاسـع: في الطلاق، وليعلم أنـه مبـاح، وإنمـا يكـون مباحاً إذا لم يكن فيه إيـذاء بالباطـل، ومهمـا طلقهـا فقـد آذاهـا، ولا يبـاح لـه إيـذاء الغـير إلا بجنايـة من جانبها أو بضـرورة من جانبـه. قـال ابن مسـعود في

قولــه تعــالى: (ولا يخــرجن إلا أن يــأتين بفاحشــةٍ مبينــةٍ) [الطلاق:1] مهمــا بــذت على أهلــه، وآذت زوجهــا فهــو فاحشــة. ثم لــيراع الــزوج في الطلاق أربعة أمور:

الأول: أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه.

الثاني: أن يقتصـر على طلقـة واحـدة فلا يجمـع بين الثلاث.

الثــالث: أن يتلطــف في التعلــل بتطليقهــا من غــير تعنيف واستخفاف.

الرابــع: أن لا يفشــي ســرها لا في الطلاق ولا في النكــاح، يــروى عن بعض الصــالحين أنــه أراد طلاق امرأة فقيل له: ما الذي يريبك منها؟ فقــال: العاقــل لا يهتك ستر امرأته فلما طلقها قيل له: لم طلقتهـا؟ فقال: ما لي ولامرأةٍ غيري.

حقوق الزوج على الزوجة:

عليها طاعة زوجها في كل ما طلب منها في نفســها مما لا معصية فيه، وقـد ورد في تعظيم حـق الـزوج عليها أخبار كثيرة، قال رسول الله صـلى اللـه عليـه وسلم: (إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شــهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها)

وحقوق الزوج على الزوجة كثيرة، وأهمها أمران:

أحدهما: الصيانة والستر.

والآخر: تـرك المطالبـة بمـا وراء الحاجـة، والتعفـف عن كسبه إذا كان حراماً، وهكذا كانت عـادة النسـاء في السلف، كان الرجل إذا خـرج من منزلـة، تقـول له امرأته أو ابنته: إياك وكسـب الحـرام، فإنـا نصـبر على الجوع والضر، ولا نصبر على النار.

والقول الجامع في آداب المرأة من غير تطويـل: أن تكون قاعدة في قعر بيتها...تحفظ بعلهـا في غيبتـه، وتطلب مسـرته في جميـع أمورهـا، ولا تخونـه في نفسـها ومالـه، ولا تخـرج من بيتهـا إلا بأذنـه، همهـا صـلاح شـأنها، وتـدبير بيتهـا، مقبلـة على صـلاتها وصـيامها، وتكـون قانعـة من زوجهـا بمـا رزق اللـه، وتقدم حقه على حقها وحق سـائر أقاربهـا، متنظفـة في نفسها، مستعدة في الأحوال كلها للتمتـع بهـا إن شاء، مشـفقة على أولادهـا، حافظـة للسـتر عليهم، قصيرة اللسان عن سب الأولاد، ومراجعة الزوج.

ومن آدابهـا: أن لا تتفـاخر على زوجهـا بجمالهـا، ولا تزدري زوجها لقبحه.

ومن آدابها: ملازمة الصـلاح، واللعب والانبسـاط في حضور زوجها. ولا ينبغي أن تؤذي زوجها بحال.

ومن آدابهـا: أن تقـوم بكـل خدمـة في الـدار تقـدر عليها.

كتاب آداب الكسب والمعاش

نحمد الله الذي...كور الليل على النهار، فجعل الليل لباســاً، والنهــار معاشــاً، لينتشــروا في ابتغــاء فضــله...فالــدنيا دار التشــمير والاكتســاب، وليس التشــمير في الــدنيا مقصــوراً على المعــاد دون المعاش، بل المعاش ذريعة إلى المعاد ومعين عليه، فالدنيا مزرعة الآخرة، ومدرجة إليها.

فضل الكسب والحث عليه:

أما من الكتـاب: فقولـه تعـالى: (ليس عليكم جنـاح أن تبتغــوا فضــلاً من ربكم) [البقــرة:198] وقولــه تعـالى: (وآخـرون يضـربون في الأرض يبتغـون من فضـل اللـه) [المزمـل:20] وقولـه: (فانتشـروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) [الجمعة:10]

أما من الأخبار: فقوله صلى الله عليـه وسـلم: (لأن يأخذ أحدكم حبلة فيحتطب بها على ظهره، خـير من يأتي رجلاً أعطاه الله من فضـله، فيسـأله أعطـاه،أو منعه)

وأما الآثار: فقد لقمان لابنه: يا بني، استغن بالكسب الحلال عن الفقر، فإنه ما افتقر أحـد قـط إلا أصـابه ثلاث خصــال: رقــة في دينــه، وضــعف في عقلــه، وذهاب مروءتـه، وأعظم من هـذا اسـتخفاف النـاس به.

وقال عمر رضي الله عنه: لا يقعد أحـدكم عن طلب الرزق، يقول: اللهم ارزقني، فقد علمتم أن السـماء لا تمطر ذهباً ولا فضة. وقال ابن مسعود رضي اللــه

عنـه: إني لأكـره أن أرى الرجـل فارغـاً لا في أمـر دنياه، ولا في أمر آخرته.

وقيـل لأحمـد: مـا تقـول فيمن جلس في بيتـه أو مسجده، وقال: لا أعمـل شـيئاً حـتى يـأتيني رزقي؟ فقال أحمد: هذا رجـل جهـل العلم، ألم يسـمع قـول النبي عليه الصـلاة والسـلام: (إن اللـه جعـل رزقي تحت ظل رمحي)

[34]

العدل واجتناب الظلم في المعاملة:

العدل ألا يضر بأخيه المسلم، والضـابط الكلي فيـه: أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فكل ما لو عُومِل بـه شـقَّ عليـهُ، وثقـل على قلبـه، فينبغي أن لا يعامـل غيره به، بل ينبغي أن يسـتوي عنـده درهمـه ودرهم غيره قال بعضهم: من باع أخاه شـيئاً بـدرهم، وليس يصلح لو اشتراه لنفسه إلا بخمسة دوانـق، فإنـه قـد تـرك النصـح المـأمور بـه في المعاملـة، ولم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، هذه جملته.

فأما تفصيله في أربعة أمور: أن لا يثنى على السلعة بما ليس فيها، وأن لا يكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شـيئاً أصـلاً، وأن لا يكتم في وزنهـا ومقـدارها شـيئاً، وأن لا يكتم من سعرها ما لو عرفه المعامـل لامتنـع عنه.

الأول: فهو ترك الثناء، فإن وصفه للسلعة إن كان بما ليس فيها فهو كذب، فإن قبل المشتري ذلك فهو تلبيس وظلم مع كونه كذباً، وإن لم يقبل فهو كذب وإسقاط مروءة. وهو محاسب على كلمة تصدر منه، (ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد) [ق:18]

ولا ينبغي أن يحلف عليه ألبته، فإنه إن كان كاذباً فقد جاء باليمين الغموس، وهي من الكبائر التي تذر الديار بلاقع، وإن كان صادقاً فقد جعل الله تعالى عرضة لأيمانه، وقد أساء فيه، إذ الدنيا أخس من أن يقصد ترويجها بذكر اسم الله من غير ضرورة. وفي الخبر: (اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ممحقة للبركة) وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاثة لا ينظر الله يوم القيامة: عائل مستكبر، ومنان بعطيته، ومنفق سلعته بيمينه)

الثاني: أن يظهر جميع عيوب المبيع خفيها وجليها، ولا يكتم منها شيئاً، فذلك واجب، فإن أخفاه كان ظالماً غاشاً، والغش حرام، وكان تاركاً للنصح في المعاملة، والنصح واجب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من غشنا فليس منا) ويدل على وجوب النصح بإظهار العيوب ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بايع جريراً على الإسلام، ذهب لينصرف، فجذب ثوبه، واشترط عليه النصح لكل مسلم.

إن القيام بحقوق الله مع المخالطة والمعاملة لا يقوم بها إلا الصديقون، ولن يتيسر ذلك على العبد إلا بأن يعتقد أمرين:

أحدهما: أن تلبيسه العيوب وترويجه السلع لا يزيد في رزقه، بل يمحقه ويذهب ببركته وما يجمعه من مفرقات التلبيسات يهلكه الله دفعة واحدة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (البيعان إذا صدقا ونصحا، بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا نزعت بركة بيعهما)

ومن عرف أن الدرهم الواحد قد يبارك فيه حتى يكون سبباً لسعادة الإنسان في الدنيا والدين، والآلاف المؤلفة قد ينزع الله البركة منها، حتى تكون سبباً لهلاك مالكها، بحيث يتمنى الإفلاس منها، ويراه أصلح له في بعض أحواله، فيعرف معنى قولنا: إن الخيانة لا تزيد في المال، والصدقة لا تنقص منه.

المعنى الثاني: الذي لا بد من اعتقاده، ليتم له النصح ويتيسر عليه: أن يعلم أن ربح الآخرة وغناها خير من ربح الدنيا، وأن فوائد أموال الدنيا تنقضي بانقضاء العمر، وتبقى مظالمها وأوزارها، فكيف يستجيز العاقل أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، والخير كله في سلامة الدين.

الثالث: ألا يكتم في المقدار شيئاً، وذلك بتعديل الميزان، والاحتياط فيه وفي الكيل، فينبغي أن يكيل

كما يكتال، قال الله تعالى: (ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) [المطففين:1_3] ولا يخلص من هذا إلا بأن يرجح إذا أعطى. قال بعض السلف: عجبت للتاجر والبائع كيف ينجو، يزن ويحلف بالنهار، وينام بالليل.

الرابع: أن يصدق في سعر الوقت، ولا يخفي منه شيئاً، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تلقى الركبان، ونهى عن النجش.

الإحسان في المعاملة:

أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعاً، والعدل سبب النجاة فقط، وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال. والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة، وهو يجري من التجارة مجرى الربح، ولا يعد من العقلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله، فكذا في معاملات الآخرة، فلا ينبغي للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم، ويدع أبواب الإحسان، وقد قال الله: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) [النحل:90] ونعنى بالإحسان: فعل ما ينتفع به المعامل، وهو غير واجب عليه، ولكنه تفضل منه...وتنال مرتبة الإحسان بواحد من أمور:

الأول: أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به في العادة.

الثاني: في استيفاء الثمن وسائر الديون مرة بالمسامحة وحط البعض، ومرة بالتأخير. قال عليه

الصلاة والسلام: (رحم الله امرأً سهل البيع، سهل الشراء سهل القضاء)

الثالث: في توفية الدين. ومن الإحسان فيه حسن القضاء. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خيركم أحسنكم قضاء)

شفقة التاجر على دينه:

تتم شفقة التاجر على دينه بمراعاة أمور:

الأول: حسن النية في ابتداء التجارة، فلينو بها الاستعفاف عن السؤال.

الثاني: أن يقصد القيام في صنعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات.

الثالث: أن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة، وأسواق الآخرة المساجد، قال الله تعالى: (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيعُ عن ذكرِ الله وإقامِ الصلاة وإيتاءِ الزكاةِ) [النور:37] وقال الله تعالى: (في بيوتٍ أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمُهُ) [النور: 36] فينبغي أن يجعل أول النهار إلى وقت دخول السوق لآخرته، فيلازم المسجد، ويواظب على الأوراد. وكان عمر رضي الله عنه يقول للتجار: اجعلوا أول نهاركم لآخرتكم، وما بعده لدنياكم. وكان صالحو السلف يجعلون أول النهار وآخره للآخرة والوسط للدنيا. فما يفوته من فضيلة التكبيرة الأولى مع الإمام في أول الوقت لا توازيها الدنيا بما

فيها وقد كان السلف يبتدرون عند الآذان ويخلون الأسواق

الرابع: أن لا يقتصر على هذا، بل يلازم ذكر الله سبحانه في السوق، ويشتغل بالتهليل والتسبيح، فذكر الله في السوق بين الغافلين أفضل.

الخامس: أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة، وذلك بأن يكون أول داخل وآخر خارج.

السادس: أن لا يقتصر على اجتناب الحرام، بل يتقى مواقع الشبهات ومواطن الريب.

السابع: ينبغي أن يراقب جميع مجارى معاملته...فإنه مراقب ومحاسب، فليعد الجواب ليوم الحساب والعقاب، في كل فعله وقوله، لِمَ أقدم عليها؟ ولأجل ماذا؟

كتاب الحلال والحرام

قال الله تعالى: (كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) [المؤمنون:51] قيل إن المراد به: الحلال، وقال تعالى: (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) [البقرة: 188] والآيات الواردة في الحلال والحرام لا تحصى.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رب أشعث أغبر مشرد في الأسفار، مطعمه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، يرفع يديه، فيقول: يا رب، يا رب، فأنى يستجاب له.)

وقـال عليـه الصـلاة والسـلام: (كـل لحم نبت من حرام فالنار أولى به)

وورد أن الصـديق رضـي اللـه عنـه شـرب لبنـاً من كسـب عبـده، ثم سـأل عبـده فقـال: تكهنت لقـوم فأعطوني، فأدخل أصبعه في فيه، وجعل يقيء.

وقـالت عائشـة رضـي اللـه عنهـا: إنكم تغفلـون عن أفضل العبادة، وهو الورع.

وقـال إبـراهيم بن أدهم رحمـه اللـه: مـا أدرك من أدرك، إلا من كان يعقل ما يدخل جوفه.

وقال يحيى بن معاذ: الطاعة خزانه من خزائن اللـه، إلا أن مفاتحها الدعاء، وأسنانه لقم الحلال.

وقـال سـهل رحمـه اللـه: من أكـل الحـرام عصـت جوارحـه، شـاء أم أبى، علم أو لم يعلم، ومن كـانت طعمته حلالاً أطاعته جوارحه، ووفقت للخيرات.

وعن علي رضـي اللـه عنـه قـال: إن الـدنيا حلالهـا حساب، وحرامها عذاب.

وروى أن بعض الصالحين قال: نحن لا نأكل إلا حلالاً، فلذلك تستقيم قلوبنا.

كتاب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة

التحاب في الله تعالى، والأخوة في دينـه من أفضـل القربـات، وألطـف مـا يسـتفاد من الطاعـات، ولهـا شروط بها يلتحق المتصـاحبون بالمتحـابين في اللـه تعـالى، وفيهـا حقـوق بمراعاتهـا تصـفو الأخـوة عن شوائب الكدورات، ونزغات الشيطان.

فضيلة الألفة والأخوة:

أعلم أن الألفة ثمرة حسـن الخلـق، والتفـرق ثمـرة سوء الخلق، فحسن الخلق يوجب التآلف، والتوافق، وسوء الخلق يثمر التباغض، والتحاسد، والتدابر.

وقد ورد الثناء على الألفة، سـيما إذا كـانت الرابطـة هي التقوى، والدين، وحب الله، من الآيـات والأخبـار والآثار ما فيه كفاية ومقنع. قال اللـه تعـالى مظهـراً عظيم منته على الخلق بنعمة الألفة: (لو أنفقت مـا في الأرض جميعـاً مـا ألفت بين قلـوبهم ولكن اللـه ألف بينهم) [الأنفال:63] وقال: (فأصـبحتم بنعمتـه إخواناً) [آل عمـران:103] أي بالألفـة، وقـال صـلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى يقول يوم القيامـة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي)

وقال علي رضي الله عنـه: عليكم بـالإخوان، فـإنهم عـدة في الـدنيا والآخـرة، ألا تسـمع إلى قـول أهـل النــار: (فمــا لنــا من شــافعين*ولا صــديق حميم) [الشعراء:100_101]

البغض في الله:

اعلم أن كـل من يحب في اللـه، لا بـد أن يبغض في الله، فإنك إن أحببت إنساناً لأنه مطيع لله، ومحبوب عند الله، فإن عصـاه فلا بـد أن تبغضـه، لأنـه عـاص للـــه، وممقـــوت عنـــد اللـــه، ومن أحب بســـبب، فبالضرورة يبغض لضده، وهـذا متلازمـان لا ينفصـل أحدهما عن الآخر.

[40]_____

الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته:

اعلم أنه لا يصلح للصحبة كل إنسان. قال صلى الله عليه وسلم: المرء على دين خليلـه، فلينظـر أحـدكم من يخالل) ولا بد أن يتميز بخصال وصـفات يـرغب بسـببها في صـحبته.....فينبغي أن يكـون فيمن تـؤثر صحبته خمس خصال: أن يكون عاقلاً، حسن الخلق، غير فاسق، ولا مبتدع، ولا حريص على الدنيا.

أما العقل فهو رأس المال، وهو الأصـل فلا خـير في صـحبة الأحمـق، فـإلى الوحشـة والقطيعـة ترجـع عاقبتها وإن طالت، فـالأحمق قـد يضـرك وهـو يريـد نفعك وإعانتك من حيث لا يدري.

وأما حسن الخلق، فلا بـد منـه، إذ ربّ عاقـل يـدرك الأشياء على ما هي عليه، ولكن إذا غلبـه غضـب، أو شهوة، أو بخل، أو جبن أطاع هـواه، وخـالف مـا هـو المعلوم عنده لعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه، فلا خير في صحبته. قال بعض الأدبـاء: لا تصـحب إلا

من يكتم سـرك ويسـتر عيبـك ويكـون معـك في النوائب ويؤثرك بالرغائب

وأمـا الفاسـق المصـر على الفسـق، فلا فائـدة في صحبته، لأن من يخاف الله لا يصرّ على كبـيرة، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته، ولا يوثق بصـداقته، بـل يتغير بتغير الأغراض. قال عمر رضـي اللـه عنـه: فلا تصحب الفـاجر فتتعلم من فجـوره، ولا تطلعـه على سـرك، واستشـر في أمـرك الـذين يخشـون اللـه تعالى.

وأمـا المبتـدع ففي صـحبته خطـر سـراية البدعـة، وتعـدى شـؤمها إليـه، فالمبتـدع مسـتحق للهجـر والمقاطعة، فكيف تـؤثر صـحبته؟ قـال عمـر رضـي الله عنه في الحث على طلب التـدين في الصـديق: عليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم، فإنهم زينـة في الرخـاء، وعـدة في البلاء،...واحـذر صـديقك إلا الأمين من القوم، ولا أمين إلا من خشى الله.

وأما الحـريص على الـدنيا، فصـحبته سـم قاتـل، لأن الطبـاع مجبولـة على التشـبه والاقتـداء، بـل الطبـع يسـرق من الطبـع من حيث لا يـدري صـاحبه، فمجالسـة الحـريص على الـدنيا تحـرك الحـرص، ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا، فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا، ويستحب صحبة الراغبين في الآخرة.

قال بعض العلماء: لا تصحب إلا أحد رجلين: رجل تتعلم منه شيئاً في أمر دينك فينفعك، أو رجل تُعلّمهُ شيئاً في أمرِ دينه فيقبلُ منك، والثالث فاهرب منه.

وقال بعضهم: الناس أربعة: فواحد حلو كله فلا يشبع منه، وآخر مرّ كله فلا يؤكل منه، وآخر فيه حموضة فخذ من هذا قبل أن يأخذ منك، وآخر فيه ملوحة فخذ منه وقت الحاجة فقط.

وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: لا تصحب خمسة: الكذاب فإنك منه على غرور، وهو مثل السراب يقرب منك البعيد، ويبعد منك القريب، والأحمق فإنك لست منه على شيء، يريد أن ينفعك فيضرك، والبخيل فإنه يقطع بك أحوج ما تكون أحوج إليه، والجبان فإنه يسلمك ويفر عند الشدة، والفاسق فإنه يبيعك بأكلة أو أقل منها. فقيل: وما أقل منها؟ قال: الطمع فيها ثم لا ينالها.

قال المأمون: الإخوان ثلاثة: أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه، والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت، والثالث: مثل الداء، لا يحتاج إليه قط.

قال أبو ذر رضي الله عنه: الوحدة خير من جليس السوء، والجليس الصالح خير من الوحدة.

قال لقمان: يا بني جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، فإن القلوب لتحيا بالحكمة، كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر.

حقوق الأخوة والصحبة:

الحق الأول: المواساة بالمال.

الحق الثاني: الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات، ولها درجات فأدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة، لكن مع البشاشة والاستبشار، وإظهار الفرح وقبول المنة.

الحق الثالث: السكوت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته، إلا إذا وجب عليه النطق في أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، ولم يجد رخصة في السكوت، فإذ ذلك لا يبالي بكراهته، فإن ذلك إحسان إليه في التحقيق، وإن كان يظن أنها إساءة في الظاهر.

أما ذكر مساوئه وعيوبه ومساوئ أهله، فهو من الغيبة، وذلك حرام في حق كل مسلم، ويزجرك عنه أمران:

الأول: أن تطالع أحوال نفسك، فإن وجدت فيها شيئاً واحداً مذموماً، فهوّن على نفسك ما تراه من أخيك، وقدّر أنه عاجز عن قهر نفسه في تلك الخصلة الواحدة، كما أنك عاجز عما أنت مبتلى به.

الثاني: أن تعلم أنك لو طلبت منزهاً من كل عيب اعتزلت عن الخلق كافة، ولن تجد من تصحبه أصلاً، فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساوئ، فإذا غلبت المحاسن المساوئ فهو الغاية والمنتهى.

قال ابن المبارك: المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العثرات.

وكما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساويه فيجب عليك ترك إساءة الظن به، وحدّه أن لا تحمل فعله على وجه فاسد، ما أمكن أن تحمله على وجه حسن، فأما ما انكشف بيقين ومشاهدة...فعليك أن تحمل ما تشاهد على سهو ونسيان ما أمكن.

وستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين.

الحق الرابع: التعليم والنصيحة: فإذا كنت غنياً بالعلم فعليك مواساته من فضلك وإرشاده إلى كل ما ينفعه في الدين والدنيا، فإن علمته وأرشدته ولم يعمل بمقتضى العلم، فعليك النصيحة، ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سر، لا يطلع عليه أحد، فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة، وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة، إذا قال صلى الله عليه وسلم: (المؤمن مرآة المؤمن) أي: يرى منه ما لا يرى من نفسه، فيستفيد المر بأخيه معرفة عيوب نفسه، ولو انفرد لم يستفيد، كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة. وقال الشافعي رحمه الله: من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه. وقيل لمسعر: أتحب من يخبرك بعيوبك؟ قال: إن نصحني فيما بيني وبينه فنعم، وإن قرعني بين الملأ فلا.

فـإن قلت: فـإذا كـان في النصـح ذكـر عيـوب ففيـه إيحاش القلب، فكيف يكـون ذلـك من حـق الأخـوة؟ فاعلم أن تنبيه عين الشفقة، وهو استمالة القلــوب، أعنى قلـوب العقلاء، وأمـا الحمقى فلا يلتفت إليهم، فإن من نبهك على فعـل مـذموم تعاطيتـه، أو صـفة مذمومة اتصفت بها لتزكى نفسـك عنهـا، كـان كمن نبهـك على حيـة أو عقـرب تحت ذيلـك، وقـد همت بإهلاكـك، فـإن كنت تكـره ذلـك فمـا أشـد حمقـك، فالصفات الذميمة عقارب، وحيات، وهي في الآخرة مهلكات، فإنها تلـدغ القلـوب والأرواح، وألمهـا أشـدُّ مما يلدغ الظواهر والأجساد. ولذلك كان عمر رضـي اللــه عنــه يقــول: رحم اللــه امــرأً أهـدى إلى أخيـه عيوبه.

وهذا في عيب هـو غافـل عنـه، فأمـا مـا علمت أنـه يعلمه من نفسه، فإنما هـو مقهـور عليـه من طبعـه، فلا ينبغي أن يكشف فيه ستره إن كـان يخفيـه، وإن كان يظهره فلا بد من التلطف في النصح بـالتعريض وبالتصريح إلى حد لا يؤدي إلى الإيحاش.

الحق الخـامس: الأخـوة كمـا تقتضـي السـكوت عن المكاره تقتضي أيضاً النطق بالمحاب، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (إذا أحب أحـدكم أخـاه فليخـبره) وإنما أمر بالأخبار لأن ذلـك يـوجب زيـادة حب، فإنـه إذا عـرف أنـك تحبـه أحبـك بـالطبع، لا محالـه، فـإذا عرفت أنه أيضاً يحبك، زاد حبـك لا محالـة، فلا يـزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضـاعف. ومن ذلـك: أن

يدعوه بأحب أسمائه إليه في غيبتـه وحضـوره، قـال عمر رضي الله عنه: ثلاث يصفين لـك ود أخيـك: أن تسلم عليه إذا لقيتـه، وتوسـع لـه في المجلس، وأن تدعوه بأحب أسمائه إليه. ومن ذلك: أن تثـنى عليـه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنـــده، فـــإن ذلـــك من أعظم الأســـباب في جلب المحبـة....من غـير إفـراط أو كـذب. ومن ذلـك: أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح، فإن إخفاء ذلـــك محض الحســـد. وأعظم من ذلـــك تـــأثيراً في المحبـــة: الـــذب عنـــه في غيبتـــه مهمـــا قصـــد بسوء....فحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة.

الحق السادس: العفو عن الزلات والهفوات، وهفوة الصـديق لا تخلـو إمـا أن تكـون في دينـه بارتكـاب معصية، أو في حقـك بتقصـيره في الأخـوة، أمـا مـا يكون في الدين من ارتكاب معصية والإصرار عليهـا، فعليك بالتلطف في نصـحه بمـا يقـوم أوده، ويجمـع شـمله، ويعيـد إلى الصـلاح والـورع حالـه. حكي عن أخـوين من السـلف انقلب أحـدهما عن الاسـتقامة فقيل لأخيه: ألا تقطعه وتهجره فقال: أجوج مـا كـان إليّ في هذا الوقت

أما زلته في حقه، بما يـوجب إيحاشـه، فلا خلاف أن الأولى العفو والاحتمـال، ومهمـا اعتـذر إليـك أخـوك كاذباً كان أو صادقاً، فاقبل عذره.

قـــال بعضـــهم: الصـــبر على مضـــض الأخ خـــير من معاتبته، والمعاتبة خير من القطيعة، والقطيعـة خـير

من الوقيعــة، وينبغي أن لا يبلــغ في البغضــة عنــد الوقيعة.

الحق السابع: الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته بكل ما يحبه لنفسه، ولأهله، فتدعو له كما تـدعو لنفسـك لا تفـرق بين نفسـك وبينـه، فـإن دعـاءك لـه دعـاء لنفسك على التحقيق، فقد قـال رسـول اللـه صـلى الله عليه وسـلم: (إذا دعـا الرجـل لأخيـه في ظهـر الغيب، قال الملـك: ولـك مثـل.) وكـان أبـو الـدرداء يقول: إني أدعـو لسـبعين من إخـواني في سـجودي وكان محمد بن يوسف الأصفهاني يقـول: وأين مثـل الأخ الصالح؟ يدعو لك في ظلمـة الليـل، وأنت تحت أطباق الثرى.

الحــق الثــامن: الوفــاء والإخلاص، ومعــنى الوفــاء: الثبـات على الحب، وإدامتـه إلى المـوت معـه،وبعـد المـوت مـع أولاده وأصـدقائه، فـإن الحب إنمـا يـراد للآخرة، قال عليه الصلاة والسلام في السبعة الـذين يظلهم الله في ظله: (ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه.) قال بعضهم: قليل وفاء بعـد الوفاة خير من كثيره في حال الحياة.

ومن الوفاء: أن لا يتغير حاله في التواضـع مـع أخيـه وإن ارتفـع شـأنه، واتسـعت ولايتـه، وعظم جاهـه، فالترفع على الإخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم.

وأوصى بعض السلف ابنه فقال: يـا بـني، لا تصـحب من الناس إلا من إذا افتقرت إليـه قـرب منـك، وإن

استغنيت عنه لم يطمع فيك، وإن علت مرتبته لم يرتفع عليك.

واعلم أنه ليس من الوفاء: موافقة الأخ فيما يخالف الحق، في أمر يتعلق بالدين، بل الوفاء له المخالفة.

ومن آثار الصدق والإخلاص وتمام الوفاء: أن تكون شديد الجزع من المفارقة، نفور الطبع عن أسبابها.

ومن الوفاء: أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه

ومن الوفاء: أن لا يصادق عدو صديقه.

الحق التاسع: التخفيف وترك التكلف والتكليف، وذلك بأن لا يكلف أخاه ما يشق عليه، فلا يستمد منه من جاه ومال، ولا يكلفه التواضع له، والتفقد لأحواله، والقيام بحقوقه، بل لا يقصد بمحبته إلا الله تعالى. قال الفضيل: إنما تقاطع الناس بالتكلف، يزور أحدهم أخاه فيتكلف له، فيقطعه ذلك عنه. قيل لبعضهم: من تصحب؟ قال: من يرفع عنك ثقل التكلف، وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ. وكان جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما يقول: أثقل إخواني عليّ من يتكلف لي، وأتحفظ منه، وأخفهم عليّ من أكون معه كما أكون وحدي. وقد قيل: من سقطت كلفته دامت ألفته، ومن خفت مؤنته دامت مودته.

حقوق المسلم:

منها: أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالسهر الحمى)

ومنها: أن لا يؤذي أحداً من المسلمين بفعل ولا قول، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)

ومنها: أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه، فإن الله لا يحب كل مختال فخور، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد)

ومنها: أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض، ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يخل الجنة قتات) وقال الخليل بن أحمد: من نمّ لك نمّ عليك، ومن أخبرك بخبر غيرك، أخبر غيرك بخبرك.

ومنها: أن لا يزيد في الهجر على ثلاثة أيام مهما غضب عليه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام)

ومنها أن لا يدخل على أحد منهم إلا بأذنه بل يستأذن ثلاثاً فإن لم يؤذن له انصرف

ومنها: أن يوقر المشايخ ويرحم الصبيان، قال صلى الله عليه وسلم: (ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ولم يرحم صغيرنا) وأن يكون مع كافة الخلق مستبشراً طلق الوجه رفيقاً، قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: إن البرَّ شيء هين، وجه طليق، وكلام لين.

ومنها: أن لا يعد مسلماً بوعد إلا ويفي به، قال صلى الله عليه وسلم: (ثلاث في المنافق: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان)

ومنها: أن يصلح ذات البين بين المسلمين مهما وجد إليه سبيلاً، قال صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة)

ومنها: أن يستر عورات المسلمين قال صلى الله عليه وسلم: (من ستر على مسلم، ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة)

ومنها: أن يبدأ كل مسلم منهم بالسلام قبل الكلام ويصافحه عند السلام.

ومنها: أن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله من ظلم غيره مهما قدر.

ومنها: تشميت العاطس.

ومنها: النصيحة لكل مسلم والجهد في إدخال السرور عليه.

ومنها: أن ينزل الناس منازلهم.

ومنها: أن يحسن إلى كل من قدر عليه منهم.

ومنها: أن يعود مرضاهم.

ومنها: أن يشيع جنائزهم.

ومنها: أن ينصف الناس من نفسه.

ومنها: أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزله ويسعى في قضاء حاجته بما يقدر عليه.

ومنها: أن لا تستصغر منهم أحداً فتهلك، لأنك لا تدري لعله خير منك، فإنه وإن كان فاسقاً فلعله يختم لك بمثل حاله، ويختم له بالصلاح.

ومنها: أن لا تنظر إليهم بعين التعظيم لهم في حال دنياهم، فالدنيا صغيرة عند الله، صغير ما فيها.

ومنها: أن لا تبذل لهم دينك من دنياهم، فتصغر في أعينهم، ثم تحرم دنياهم، فإن لم تحرم، كنت قد استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ومنها: أن لا تعادهم بحيث تظهر العداوة، فيطول الأمر عليك في المعاداة، ويذهب دينك ودنياك فيهم، ويذهب دينهم فيك، إلا إذا رأيت منكراً في الدين، فتعادى أفعالهم القبيحة، وتنظر إليهم بعين الرحمة، لتعرضهم لمقت الله وعقوبته بعصيانهم.

ومنها: أن لا تسكن إليهم في مودتهم لك، وثنائهم عليك في وجهك، وحسن بشرهم لك، فإنك إن طلبت حقيقة ذلك لم تجد في المائة إلا واحداً، وربما لا تجده.

ومنها: أن لا تشك إليهم أحوالك فيكلك الله إليهم.

ومنها: أن لا تطمع أن يكونوا لك في الغيب والسر كما في العلانية، فذلك طمع كاذب وأنى تظفر به؟

ومنها: أن لا تطمع فيما في أيديهم فتستعجل الذل، ولا تنال الغرض.

ومنها: أن لا تعلُ عليهم تكبراً لاستغنائك عنهم، فإن الله يلجئك إليهم عقوبة على التكبر.

ومنها: أنك إذا سألت أخاً منهم حاجة فقضاها، فهو أخ مستفاد، وإن لم يقض فلا تعاتبه، فيصير عدواً تطول عليك مقاسته.

ومنها: أنك مهما رأيت منهم كرامة وخيراً فاشكر الله الذي سخرهم لك، واستعذ بالله أن يكلك إليهم.

حقوق الجوار:

اعلم أن الجوار يقتضي حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام، فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه.)

وقال عليه الصلاة والسلام: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره)

وقال صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه)

واعلم أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط، بل احتمال الأذى، ولا يكفى احتمال الأذى بل لا بد من الرفق، وإسداء الخير والمعروف.

شكا بعضهم كثرة الفار في داره، فقيل له: لو اقتنيت هراً؟ فقال: أخشى أن يسمع الفار صوت الهر، فيهرب إلى بيوت الجيران، فأكون قد أحببت لهم ما لا أحب لنفسي.

وجملة حق الجار: أن يبدأه بالسلام، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويهنئه في الفرح ويظهر السرور معه ويصفح عن زلاته ولا يتطلع إلى عوراته، ويستر ما ينكشف له من عوراته، ويغض بصره عن حرمته، ويرشده إلى ما يجهله في أمور دينه ودنياه.

حقوق الوالدين والولد:

لا يخفى أنه إذا تأكد حق القرابة والرحم، فأخص الأرحام وأمسها الولادة، فيتضاعف حق تأكد الحق فيها. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لن يجزي ولد والده حتى يجده مملوكاً فيشتريه ويعتقه.)

وجاء رجل فقال: يا رسـول اللـه، هـل بقي علي من بر أبوي شيء أبرهما بعد وفاتهما؟ قال: نعم، الصلاة عليها _ أي الـدعاء لهمـا _ والاسـتغفار لهمـا، وانفـاذ عهـدهما، وإكـرام صـديقهما، وصـلة الـرحم الـتي لا توصل إلا بهما)

وجاء رجل إلى عبدالله بن المبارك فشكا إليـه بعض ولده، فقال: هل دعوت عليه؟ قـال: نعم، قـال: أنت أفسدته.

ويستحب الرفق بالولد، رأى الأقرع بن حابس النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم وهـو يقبـل ولـده الحسـن، فقـال: إن لي عشـرة من الولـد، مـا قبلت واحـداً منهم! فقال عليه الصلاة والسـلام: (من لا يـرحم لا يرحم)

حقوق الأقارب والرحم:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقـول اللـه تعالى: أنا الرحمن، وهذه الـرحم شـققت لهـا اسـماً من اسمي، فمن وصلها وصـلته، ومن قطعهـا بتتـه) وقال عليه الصلاة والسلام: (من سره أن ينسـأ لـه في أثره، ويوسع عليه رزقه، فليصـل رحمـه) وقـال صلى الله عليـه وسـلم: (ليس الواصـل بالمكـافئ، ولكن الواصل إذا قطعت رحمه وصلها) وقـال صـلى الله عليه وسلم: (الصـدقة على المسـكين صـدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان.)

حقوق المملوك:

ملك اليمين يقتضي حقوقاً في المعاشرة لا بد من مراعاتها، فقد كان أخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (للملوك طعامه، وكسوته بالمعروف، ولا يكلف من العمل ما لا يطيق) وكان عمر رضي الله عنه يذهب إلى العوالي في كل يوم سبت، فإذا وجد عبداً في عمل لا يطيقه، وضع عنه.

فجملة حق المملوك أن يشركه في طعمته وكسوته، ولا يكلفه فوق طاقته، ولا ينظر إليه بعين الكبر والازدراء، وأن يعفو عن زلته، وأن يتفكر عند غضبه عليه، معاصيه وجنايته في حق الله تعالى وتقصيره في طاعته، مع أن قدرة الله عليه فوق قدرته.

كتاب آداب العزلة

للناس اختلاف كثير في العزلة والخلطة، وتفضيل إحداهما على الأخرى، ومع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن غوائل تنفر عنها، وفوائد تدعو إليها، ومال أكثر العباد والزهاد إلى اختيار العزلة وتفصيلها على المخالطة، وقال أكثر التابعين باستحباب المخالطة،

واستكثار المعارف الإخوان، والتألف والتحبب إلى المؤمنين، والاستعانة بهم في الدين تعاوناً على البر والتقوى، ومال إلى هذا: سعيد بن المسيب، والشعبي، وشريح، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وجماعة.

فوائد العزلة:

الفائدة الأولى: التفرغ للعبادة.

الفائدة الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة، ويسلم منها في الخلوة، وهي: الغيبة والنميمة، والرياء، والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا.

الفائدة الثالثة: الخلاص من الفتن والخصومات، وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها، والتعرض لأخطارها، وقلما تخلو البلاد عن تعصبات وفتن وخصومات، فالمعتزل عنهم في سلامة منها.

الفائدة الرابعة: الخلاص من شر الناس، فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة، ومرة بسوء الظن، وتارة بالنميمة أو الكذب، فإذا اعتزلتهم استغنيت من التحفظ عن جميع ذلك.

الفائدة الخامسة: أن ينقطع الناس عنك، وينقطع طمعك عن الناس.

الفائـــدة السادســـة: الخلاص من مشـــاهدة الثقلاء والحمقى ومقاساة حمقهم وأخلاقهم.

فوائد المخالطة:

الفائدة الأولى: التعليم والتعلم وهما أعظم العبادات في الدنيا، ولا يتصور ذلك إلا بالمخالطة.

الفائدة الثانية: النفع والانتفـاع، أمـا الانتفـاع بالنـاس فبالكسب والمعاملة، وذلـك لا يتـأتى إلا بالمخالطـة، وأما النفع فهـو أن ينفـع النـاس إمـا بمالـه، أو ببدنـه فيقوم بحاجتهم على سـبيل الحسـبة. ففي النهـوض بحوائج المسلمين ثواب وذلك لا ينال إلا بالمخالطة

الفائدة الثالثة: التأديب والتأدب، ونعنى به الارتيـاض بمقاساة الناس، والمجاهدة في تحمل أذاهم كسـراً للنفس، وقهـراً للشـهوات، وهي من الفوائـد الـتي تستفاد بالمخالطة، وهي أفضل من العزلـة في حـق من لم تتهـذب أخلاقـه، ولم تـذعن لحـدود الشـرع شهواته.

الفائدة الرابعة: الاستئناس والإيناس، وهو غرض من يحضر الولائم والـدعوات ومواضـع العشـرة والإنس. وقد يكون ذلك على وجه حرام...أو على وجه مباح

ويسـتحب ذلـك إذا كـان الغـرض منـه تـرويح القلب لتهيج دواعي النشاط في العبادة.

الفائدة الخامسة: في نيل الثواب وإنالته، أمـا النيـل فبحضور الجنائز وعيادة المـريض وحضـور العيـدين،

وأمـا إنالتـه فهـو أن يفتح البـاب لتعـوده النـاس، أو ليعـزوه في المصـائب، أو يهنـوه على النعم، فـإنهم ينالون بذلك ثواباً.

الفائدة السادسة: التواضع، من أفضل المقامات، ولا يقدر عليه في الوحـدة، وقـد يكـون الكـبر سـبباً في اختيار العزلة.

الفائــدة الســابعة: التجــارب، فإنهــا تســتفاد من المخالطة للخلق ومجارى أحوالهم، والعقل الغريزي ليس كافيـاً في تفهم مصـالح الـدين والـدنيا، وإنمـا تفيدها التجربة والممارسة، ولا خير في عزلة من لم تحنكه التجارب.

[54]

كتاب آداب السفر

السفر وسيلة إلى الخلاص عن مهروب، أو الوصـول إلى مطلوب ومرغوب فيه...فإن كـان مطلبـه العلم والدين، أو الكفايـة للاسـتعانة على الـدين، كـان من سالكي سبيل الآخرة.

والسفر نوع حركة ومخالطة، وفيه فوائد وله آفات.

أقسام السفر:

القسـم الأول: السـفر في طلب العلم، قـال عليـه الصلاة والسلام: (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة.)

ورحل جابر بن عبدالله رضي الله عنـه، من المدينـة إلى مصر، شـهراً في حـديث بلغـه، وكـان سـعيد بن المسيب يسافر الأيام في طلب الحديث الواحد.

القسم الثاني: أن يسافر لأجل العبـادة، إمـا لحج، أو جهاد.

القسم الثـالث: أن يكـون السـفر للهـرب من سـبب مشوش للدين.

القسم الرابع: السفر هرباً ممـا يقـدح في البـدن، أو في المال.

فهذه أقسام الأسفار...ولتكن نيته الأخـرة في جميـع أســفاره...فلا يســافر إلا إذا كــان زيــادة دينــه في سفره، ومهما وجد قلبـه متغـيراً إلى نقصـان فيقـف ولينصرف.

وينوي في دخول كل بلدة أن يرى شـيوخها، ويجتهـد في أن يسـتفيد من كـل واحـد منهم أدبـاً، أو كلمـة لينتفع بها.

ويلازم في الطريق الذكر، وقراءة القرآن.

كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لو طوى بساطه وأهمــل علمــه وعملــه لتعطلت النبــوة واضــمحلت الديانـة، وعمت الفـترة، وفشـت الضـلالة، وشـاعت الجهالـة، واستشـرى الفسـاد، وخـربت البلاد، وهلـك

العباد، فإنا لله وإنا إليه راجعـون، إذ قـد انـدرس من هذا القطب عمله وعلمـه، وانمحـق بالكليـة حقيقتـه ورسـمه، فاسـتولت على القلـوب مداهنـة الخلـق وانمحت عنها مراقبة الخالق، واسترسل النـاس في اتباع الهوى والشهوات

وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يـدل على ذلـك بعـد إجمـاع الأمـة عليـه، وإشـارات العقول السليمة إليه: الآيات والأخبار والآثار.

أما الآيـات: فيقـول اللـه تعـالى: (ولتكن منكم أمـة يدعون إلى الخـير ويـأمرون بـالمعروف وينهـون عن المنكـر وأولئـك هم المفلحـون) [آل عمـران:104] وقال تعـالى: (ليسـوا سـواءً من أهـل الكتـاب أمـة قائمة يتلون آيـات اللـه آنـاء الليـل وهم يسـجدون * يؤمنـون باللـه واليـوم الآخـر ويـأمرون بـالمعروفِ وينهون عن المنكرِ ويسارعون في الخيراتِ وأولئـك من الصالحين) [آل عمـران:113_114] فلم يشـهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر، حـتى أضـاف إليـه الأمـر بـالمعروف، والنهي عن المنكـر، وقال تعالى: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أوليـاء بعض يـأمرون بـالمعروف وينهـون عن المنكـر ويقيمون الصلاة) [التوبـة:71] فقـد نعت المؤمـنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فالـذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر خـارج عن هؤلاء المنعوتين في هذه الآيـة، وقـال تعـالى: (كنتم

خير أمةٍ أخرجت للناس تأمرون بـالمعروف وتنهـون عن المنكر) [آل عمران:110]

وأما الأخبـار: فمنهـا: مـا روى عن أبي بكـر الصـديق رضـي اللـه عنـه، أنـه قـال في خطبـة خطبهـا: أيهـا الناس إنكم تقرأون هذه الآيـة وتؤولونهـا على خلاف تأويلهـا، (يـا أيهـا الـذين آمنـوا عليكم أنفسـكم لا يضركم من ضل إذا اهتـديتم) [المائـدة:105] وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: مـا من قوم عملوا بالمعاصي، وفيهم من يقـدر أن ينكـر عليهم، فلم يفعـل إلا يوشـك أن يعمهم اللـه بعـذاب من عنده.

وقال رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: (إيـاكم والجلوس في الطرقات) قالوا: ما لنا بـدّ، إنمـا هي مجالسـنا نتحـدث فيهـا، قـال: (فـإذا أبيتم إلا ذلـك، فأعطوا الطريـق حقهـا) قـالوا: ومـا حـق الطريـق؟ قال: (غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكـر)

وأما الآثار: فقـد قـال أبـو الـدرداء رضـي اللـه عنـه: لتأمرن بالمعروف، ولتنهن عن المنكـر، أو ليسـلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً، لا يجل كبيركم، ولا يـرحم صـغيركم، ويـدعو عليـه خيـاركم فلا يسـتجاب لهم، وتستنصـرون فلا تنصـرون، وتسـتغفرون فلا يغفـر لكم.

وسـئل حذيفـة رضـي اللـه عنـه عن ميت الأحيـاء، فقـال: الـذي لا ينكـر المنكـر بيـده، ولا بلسـانه، ولا بقلبه.

وقال بلال بن سعيد: إن المعصية إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها، فإذا أعلنت ولم تغير أضرت العامة.

وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يأتي العمال، ثم قعد عنهم، فقيل له: لو أتيتهم فلعلهم يجدون في أنفسهم، فقـال: أرهب أن تكلمت أن يـروا أن الـذي بي غير الذي بي، وإن سكتُ رهبة أن آثم.

وهـذا يـدل على أن من عجـز عن الأمـر بـالمعروف فعليه أن يبعد عن ذلك الموضع

كتاب أخلاق النبوة

الحمـد للـه الـذي خلـق كـل شـيء فأحسـن خلقـه وترتيبه، وأدب نبيـه محمـداً صـلى اللـه عليـه وسـلم فأحسـن تأديبـه، وزكى أوصـافه وأخلاقـه، ووفـق للاقتداء به من أراد تهذيبه،

وحرم من التخلق بأخلاقه من أراد تخيبه.

جملة من محاسن أخلاقه:

كان صلى الله الله عليه وسلم أحلم الناس، وأشـجع الناس، وأعدل النـاس، وأعـف النـاس لم تمس يـده قـط يـد امـرأة لا يملـك رقهـا، أو عصـمة أمرهـا، أو

تكون ذات محرم منه، وكان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم، لا يُسأل عن شيء إلا أعطاه

وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويخدم في مهنة أهله، ويجب دعوة العبد والحر، ويقبل الهدايا ولو أنها جرعة لبن ويكافئ عليها، ولا يستكبر عن إجابة الأرملة والمسكين، يغضب لربه ولا يغضب لنفسه، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع،

إن وجد تمراً أكله، وإن وجد خبر بر أو شعير أكله، لا يأكل متكئاً، ولا على خوان، لم يشبع من خبز ثلاثة أيام متوالية حتى لقى الله تعالى إيثاراً على نفسه، لا فقراً ولا بخلاً، يجيب الوليمة، ويعود المرضى، ويشهد الجنائز، أشدّ الناس تواضعاً، وأسكنهم في غير كبر، وأبلغهم في غير تطويل، وأحسنهم بشراً، لا يهوله شيء من أمور الدنيا، ويلبس ما وجد من المباح، يردف خلفه عبده أو غيره، يركب ما أمكنه، مرة فرساً ومرة بعيراً ومرة بغلة ومرة حماراً، يحب الطيب، ويكره الرائحة الرديئة، ويجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين، ويكرم أهل الفضل، ويتألف أهل الشرف، يصل رحمه، ولا يجفو على أحد، يقبل معذرة من المعتذر إليه، يمزح ولا يقول إلا حقاً، يضحك من غير قهقهه، يرى اللعب المباح فلا ينكره، يسابق أهله، ترفع الأصوات عليه فيصبر.

ما ضرب بيده أحد قط إلا أن يضرب بها في سبيل الله تعالى، وما انتقم من شيء صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله، وما خير بين أمرين قط إلا

اختارهما أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر، وكان إذا لقى أحداً من أصحابه بدأه بالمصافحة، وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله، وحيث انتهى به المجلس جلس، وكان أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضا، وكان أراف الناس بالناس، وخير الناس للناس، وأنفع الناس للناس، ولم تكن ترفع في مجلسه الأصوات، كان أفصح الناس منطقاً وأحلاهم كلاماً، وكان نزر الكلام وسمح المقالة، إذا نطق ليس بمهذار، وكان أوجز الناس كلاماً، وكان يتكلم بجوامع الكلام لا فضول ولا تقصير، وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة، ولا يقول المنكر، ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق، ويكنى عما اضطر الكلام إليه مما يكره، وكان أكثر الناس تبسماً وضحكاً في وجوه أصحابه، وإن غضب _ وليس يغضب إلا لله _ لم يقم لغضبه شيء.

كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس، وأرغبهم في العفو، كان رفيق البشرة، لطيف الظاهر والباطن، يعرف في وجه غضبه ورضاه، وكان أجود الناس وأسخاهم، وكان في شهر رمضان كالريح المرسلة لا يمسك شيئاً، وكان أنجد الناس وأشجعهم، وكان أشد الناس تواضعاً في علو منصبه.

قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة، والسياسة التامة، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، علمه الله تعالى

جميـع محاسـن الأخلاق والطـرق الحميـدة، وأحبـار الأولين والآخـرين، وفقنـا اللـه لطاعتـه في أمـره، والتأسي به في فعله. آمين يا رب العالمين.

الربع الثالث: ربع المهلكات

كتاب القلب

أبواب الشيطان ومداخله إلى قلب الإنسان:

اعلم أن مثال القلب مثـال حصـن، والشـيطان عـدو يريد أن يدخل الحصن، فيملكـه ويسـتولي عليـه، ولا يقدر على حفظ الحصن إلا بحراسـة أبـواب الحصـن ومداخله، ولا يقدر على حراسـة أبوابـه من لا يـدري أبوابه. ومن أبواب الشيطان:

الغضب، والحسد:

الغضب هو غول العقل، وإذا ضعف جند العقـل هجم جند الشيطان، ومهما غضب لعب الشيطان به، كمـا يلعب الصبي بالكرة.

والحسد من أعظم مداخله.

الشبع على الطعام:

وإن كان حلالاً صافياً، فإن الشـبع يقـوي الشـهوات، والشهوات أسلحة الشيطان. ويقال في كثرة الأكــل ست خصال مذمومة:

أولها: أن يذهب خوف الله من قلبه.

الثاني: أن يذهب رحمة الخلـق من قلبـه، لأنـه يظن أنهم كلهم شباع.

الثالث: أنه يثقل عن الطاعـة. الرابـع: أنـه إذا سـمع كلام الحكمة لا يجد له رقة.

الخـامس: إذا تكلم بالموعظـة والحكمـة لا يقـع في قلوب الناس.

السادس: أنه يهيج الأمراض.

البخل وخوف الفقر:

فإن ذلك هو الذي يمنع الإنفاق والتصدق، ويدعو إلى الادخار والكنز.

الطمع في الناس:

إذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشـيطان يحبب إليـه التصـنع والـتزين لمن طمـع فيـه بـأنواع الريـاء والتلبيس،...وأقل أحواله الثناء عليـه بمـا ليس فيـه، والمداهنــة لــه بــترك الأمــر بــالمعروف والنهي عن المنكر.

العجلة وترك التثبت في الأمور:

قال عز وجل: (وكان الإنسان عجولاً) [الإسراء:11] وهــذا لأن الأعمــال ينبغي أن تكــون بعــد التبصــرة والمعرفــة، والتبصــرة تحتــاج إلى تأمــل وتمهــل، والعجلة تمنع ذلك، وعند الاستعجال يروج الشــيطان شره على الإنسان من حيث لا يدري.

سوء الظن بالمسلمين:

قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن) [الحجـــــرات:12] فمن يحكم بشرٍ على غيره بالظن، يحثه الشيطان أن يطول فيه اللسان بالغيبة، وينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيراً منه.

العلاج في سدِّ مداخل الشيطان:

فإن قلت: فما العلاج في دفع الشيطان؟

فاعلم أن علاج القلب في ذلك: سد هذه المداخل بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة، لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى، وتطهيره من الصفات المذمومة فإن أردت الخلاص من الشيطان فقدّم الاحتماء بالتقوى ثم أردفه بدواء الذكر يفرُّ الشيطان منك ولذلك قال وهب بن منبه اتق الله، ولا تسب الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السرّ أي: أنت مطيع له وقيل: يا عجباً لمن يعصى المحسن بعد معرفته بإحسانه، ويطيع اللعين بعد معرقته بطغيانه.

كتاب رياضة النفس

الخلق الحسن صفة سيد المرسلين، وأفضل أعمال الصديقين، والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة، والمهلكات الدامغة، والمخازى الفاضحة، والرذائل

الواضحة، والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين، المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين.

والأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان، وجوار الرحمن، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس.

فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق:

قال الله تعالى لنبيه مثنياً عليه ومظهراً نعمته لديه: (وإنك لعلى خلق عظيم) [القلم:4] وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن. وقال عليه الصلاة والسلام: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وقال صلى الله عليه وسلم: (أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق) وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني، فقال: (اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: (اللهم حسنت خلقي، فحسن خُلقي)

قال الحسن: من ساء خلقه عذب نفسه.

وقال أنس بن مالك: إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد، ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك في جهنم وهو عابد.

وقال يحيى بن عاذ: في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق.

وصحب ابن المبارك رجلاً سيء الخلق في سفر، فكان يحتمل منه، ويداريه، فلما فارقه بكى، فقيل له في ذلك، فقال: بكيته رحمة له، فارقته وخلقه معه لم يفارقه.

بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حسن الخلق في ثلاث خصال: اجتناب المحارم، وطلب الحلال، والتوسعة على العيال.

وقال الحسن: حسن الخلق: بسط الوجه، وبذل الندى، وكف الأذى.

أمهات الأخلاق أصولها أربعة: الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل.

ونعنى بالحكمة: حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية

ونعنى بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملها على مقتضى الحكمة، وتضبطها في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها.

ونعى بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها.

ونعنى بالعفة تأديب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع.

فمن اعتـدال هـذه الأصـول الأربعـة تصـدر الأخلاق الجميلة كلها.

إذ من اعتـدال قـوة العقـل يحصـل حسـن التـدبير، وجودة الذهن، وثقابة الرأي

وأمـا خلـق الشـجاعة: فيصـدر منـه الكـرم والنجـدة والشهامة وكسر النفس والاحتمـال والحلم والثبـات وكظم الغيظ والوقار

وأما خلق العفة فيصدر منه السخاء والحياء والصـبر والمسامحة والقناعة والـورع واللطافـة والمسـاعدة والظرف وقلة الطمع.

فأمهـــات محاســـن الأخلاق هـــذه الفضـــائل الأربعة...والباقي فروعها.

ولم يبلغ كمـال الاعتـدال في هـذه الأربـع إلا رسـول الله صلى الله عليه وسلم، والناس بعـده متفـاوتون في القرب والبعد منه....وكـل من جمـع كمـال هـذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكاً مطاعاً.

قبول الأخلاق للتغير بالرياضة:

اعلم أن بعض من غلبت عليـه البطالـة اسـتثقل المجاهـدة والرياضـة، والاشـتغال بتزكيـة النفس وتهذيب الأخلاق، فلم تسمح نفسـه بـأن يكـون ذلـك لقصوره، ونقصه، فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغيرهـا فإن الطباع لا تتغير.

فنقـول: لـو كـانت الأخلاق لا تقبـل التغـير، لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ...وكيف ينكر هـذا في حـق الأدمي، وتغيـير خلـق البهيمـة ممكن، إذ ينقـل الباري من الاستحياش إلى الإنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخليـة، والفـرس من الجمـاح إلى السـلامة والانقيـاد، وكـل ذلـك تعيـير للأخلاق.

الأسباب التي ينال به حسن الخلق:

الأول: جـــود إلهي، وكمـــال فطـــري، بحيث يخلـــق الإنسان ويولد كامل العقـل، حسـن الخلـق قـد كفى سلطان الشهوة والغضـب فيصـير عالمـاً بغـير تعليم مؤدباً من غير تأديب

الثاني: اكتساب هـذه الأخلاق بالمجاهـدة والرياضـة، وأعـنى حمـل النفس على الأعمـال الـتي يقتضـيها الخلق المطلوب

الثـــالث: مشـــاهدة أربـــاب الفعـــال الحميـــدة، ومصـاحبتهم، وهم قرنـا الخـير، وإخـوان الصـلاح، إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعاً.

فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث حتى صـار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً فهو في غاية الفضيلة.

ومن كان رذلاً بالطبع، واتفق له قرناء السوء، فتعلم منهم، وتيسرت له أسباب الشر، حـتى اعتادهـا فهـو غايـة البعـد من اللـه عـز وجـل، وبين الرتبـتين من

اختلفت فيه من هذه الجهات، ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صورته وحالته.

الطريق إلى تهذيب الأخلاق:

النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرذيلة عنها، وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة لها، مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه، وكسب الصحة له، وجلبها إليه، وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً وإنما يكمل ويقوى بالنشو والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم. وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض، لا تعالج إلا بضدها، فإن كانت من حرارة فبالبرودة. وإن كانت من برودة فبالحرارة، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب، علاجها بضدها، فيعالج مرض الجهل بالتعلم، ومرض البخل بالتسخي، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفاً.

وكما أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء، وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة، فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة، والصبر لمداوة مرض القلب بل أولى. فإن مرض البدن يخلص منه بالموت، ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت.

الطرق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه:

اعلم أن اللـه عـز وجـل إذا أراد بعبـده خـيراً بصـره بعيوب نفسه، فمن كانت له بصـيرة نافـذة لم تخـف عليه عيوبه، فإذا عـرف العيـوب أمكنـه العلاج، فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله طرق:

الأول: أن يطلب صـديقاً صـدوقاً دينـاً فمـا كـره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه ينبه عليه.

الثاني: أن يستفيد معرفـة عيوبـه من ألسـنة أعدائـه فإن عين السخط تبدى المساوي.

الثـالث: أن يخالـط النـاس فكـل مـا رآه مـذموماً فليتفقد نفسه ويطهرها من كل ما يذمه

علامات حسن الخلق:

اعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسـه، فـإذا جاهـد نفسه أدنى مجاهـدة حـتى تـرك فـواحش المعاصـي ربمـا ظن بنفسـه أنـه هـذب نفسـه وحسـن خلقـه واسـتغنى عن المجاهـدة، فلابـد من إيضـاح علامـة حسن الخلق، فـإن حسـن الخلـق هـو الإيمـان، وقـد ذكر الله صـفات المؤمـنين في كتابـه، وهي بجملتهـا حسن الخلق، فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق. قال الله تعالى: (قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صـلاتهم خاشـعون) [المؤمنـون:1_2] إلى قوله (أولئك هم الوارثـون) [المؤمنـون:10] وقـال عز وجل: (التائبون العابـدون الحامـدون السـائحون الراكعون الساجدون الآمـرون بـالمعروف والنـاهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين)

[التوبة:112] وقال عز وجل: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكـر اللـه وجلت قلـوبهم وإذا تليت عليهم آياتـه زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلـون * الـذين يقيمـون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنـون حقـا لهم درجـات عنـد ربهم ومغفـرة ورزق كـريم) [الأنفال:2-3_4] وقال تعالى: (وعباد الرحمن الذين يمشـون على الأرض هونـا وإذا خـاطبهم الجـاهلون قالوا سلاماً) [الفرقان: 63] إلى آخر السورة.

فمن أشكل عليـه حالـه، فليعـرض نفسـه على هـذه الآيات، فوجود جميع الصفات علامـة حسـن الخلـق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضـها دون بعض، يـــدل على البعض دون البعض، فليشـــتغل بتحصيل ما فقده، وحفظ ما وجده.

وقد وصـف النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم المـؤمن بصفات كثيرة، وأشار بجميعها إلى محاسـن الأخلاق، فقال عليه الصلاة والسلام: (المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه) وقـال: (من كـان يـؤمن باللـه واليـوم الآخر، فليكرم ضيفه)

وقال: (من كان يؤمن باللـه واليـوم الآخـر، فليكـرم جاره) وقال: (من كـان يـؤمن باللـه واليـوم الآخـر فليقل خيراً أو ليصمت) وذكر أن صـفات المؤمـنين هي حسـن الخلـق، فقـال صـلى اللـه عليـه وسـلم: (أكمـل المؤمـنين إيمانـاً أحسـنهم أخلاقـاً) وقـال: (من سـرته حسـنته وسـاءته سـيئته فهـو مـؤمن) وجمع بعضهم علامـات حسـن الخلـق فقـال: هـو أن

يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، براً، وصولاً، صبوراً، شكوراً، رضياً، حليماً، رفيقاً، عفيفاً شفيقاً، لا لعاناً، ولا ساباً، ولا نماماً، ولا مغتاباً، ولا عجولاً، ولا حقوداً، ولا بخيلاً، ولا حسوداً، بشاشاً، هشاشاً، يحب في الله، ويبغض في الله، ويرضى في الله، ويبغض في الله، فهذا هو حسن الخلق.

رياضة الصبيان وتأديبهم وتحسين أخلاقهم:

الصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة، خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب وإن عود الشر وأهمل شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيم عليه، والوالي له.

ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فلأن يصونه عن نار الآخرة أولى، وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء، ولا يعوده التنعم، ولا يجبب إليه الزينة والرفاهية، فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك.

والصبي...إذا كان يستحى، ويترك بعض الأفعال، حتى يرى بعض الأفعال قبيحاً، فهذه بشارة تدل

على اعتدال الأخلاق، وصفاء القلب، ومبشـر بكمـال العقل عند البلوغ.

ـــــــــــ[67]

وأول مـا يغلب عليـه من الصـفات: شـره الطعـام فينبغي أن يـؤدب فيـه مثـل أن لا يأخـذ الطعـام إلا بيمينه، وأن يقول: بسـم اللـه عنـد أخـذه، وأن يأكـل مما يليه، وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غـيره، وأن لا يحدق النظر إلى من يأكل، وأن لا يسرع في الأكل.

ويحفـظ الصـبي عن الصـبيان الـذين عـودوا التنعم والرفاهية، ولبس الثياب الفاخرة.

والصبي إذا أهمل في ابتداء نشوه خـرج في الأغلب ردئ الأخلاق، كذاباً، حسوداً، سروقاً، نمامـاً، لحوحـاً، ذا فضول، وضحك، وكيد، ومجانـة، وإنمـا يحفـظ عن جميع ذلك بحسـن التـأديب، ثم يشـغل في المكتب، فيتعلم القـرآن، وأحـاديث الأخبـار، وحكايـات الأبـرار وأحوالهم لينغرس في نفسه حب الصالحين، ويُحفظ من الأشعار التي فيها ذكـر العشـق وأهلـه، ويُحفـظ من مخالطـة الأدبـاء الـذين يزعمـون أن ذلـك من الظرف ورقـة الطبـع، فـإن ذلـك يغـرس في قلـوب الصبيان بذر الفساد.

ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعـل محمـود فينبغي أن يكرم عليه، ويجازي عليـه بمـا يفـرح بـه، ويمدح بين أظهـر النـاس، فـإن خـالف في ذلـك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه، ولا

يهتك ستره...ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه، فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة، فعند ذلك إن عاد ثانياً فينبغي أن يعاتب سراً، ويعظم الأمر فيه، ويقال: إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا، ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح، ويسقط وقع الكلام من قلبه، وليكن الأب حافظاً هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحياناً، والأم تخوفه بالأب، وتزجره عن القبائح.

ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه، ويمنع أن يأخذ من الصبيان شيئاً بدا له، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء.

وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب، بحيث لا يتعب في اللعب، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائماً يميت قلبه، ويبطل ذكاءه، وينغص عليه العيش، حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً.

وينبغي أن يعلم طاعة والديه، ومعلمه، ومؤدبه، ومن هو أكبر منه سناً من قريب وأجنبي، وأن يترك اللعب بين أيديهم.

ومهما بلغ سن التميز، فينبغي أن لا يسامح في ترك الطهارة والصلاة، ويؤمر بالصوم في بعض أيام

رمضــان، ويجنب لبس الــديباج والحريــر والــذهب، ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع.

ويخـوف من السـرقة، وأكـل الحـرام، ومن الخيانـة، والكذب، والفحش، وكل ما يغلب على الصبيان.

فإذا وقع نشوه كذلك في الصبا فمهما قارب البلــوغ أمكن أن يعـرف أسـرار هـذه الأمـور، فيـذكر لـه أن الأطعمــة أدويــة، وإنمــا المقصــود منهــا أن يقــوى الإنسان بهـا على طاعـة اللـه عـز وجـل، وأن الـدنيا كلها لا بقاء لها، وأن الموت يقطع نعيمهـا، وأنهـا دار ممـر لا دار مقـر، وأن الآخـرة دار مقـر لا دار ممـر، وأن المــوت منتظــر في كــل ســاعة، وأن الكيس العاقــل من تــزود من الــدنيا للآخــرة، حــتى تعظم درجته عند الله تعالى، ويتسع نعيمه في الجنان، فإذا كان النشو صالحاً كان هذا الكلام عنـد البلـوغ واقعـاً مـؤثراً ناجعـاً، يثبت في قلبــه كمــا يثبت النقش في الحجر.

وإن وقع النشو بخلاف ذلك حتى ألف الصــبي اللعب والفحش والوقاحة وشره الطعام واللباس، والــتزين والتفاخر، نبا قلبه عن قبول الحق

كتاب شهوة البطن

ذم الشبع:

قال رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم: (المـؤمن يأكل في معي واحد، والمنافق يأكل في سبعة أمعاء

) أي: يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن، أو تكـون شهوته سبعة أضعاف شهوته.

وقال رسـول اللـه عليـه الصـلاة والسـلام: (أطـول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً في الدنيا)

وقال عمر رضي الله عنه: إياكم والبطنة، فإنها ثقـل في الحياة، ونتن في الممات.

وقال لقمان لابنه: يا بـني، إذا امتلأت المعـدة نـامت الفكـرة، وخرسـت الحكمـة، وقعـدت الأعضـاء عن العبادة.

فوائد قلة الأكل:

الفائدة الأولى: صفاء القلب، وإيقاد القريحة، وإنفـاذ البصيرة، فإن الشبع يورث البلادة، والصـبي إذا أكـثر الأكل، بطل حفظه، وفسد ذهنـه، وصـار بطئ الفهم والإدراك

الفائدة الثانية: رقة القلب، الذي به يتهيأ لإدراك لـذة التـأثر بالـذكر، فكم من ذكـر يجـري على اللسـان، ولكن القلب لا يلتذ به، ولا يتأثر حتى كأن بينـه وبينـه حجاباً من قسوة القلب، وقد يرق في بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر، وتلذذه بالمناجاة، وخلو المعـدة هو السبب الأظهر فيه.

الفائـدة الثالثـة: الانكسـار والـذل، وزوال البطـر والفرح والأشر، الذي هو مبدأ الطغيان، والغفلـة عن الله تعالى.

الفائـدة الرابعـة: أن لا ينسـى بلاء اللـه وعذابـه، ولا ينسـى أهـل البلاء، فـإن الشـبعان ينسـى الجـائع، وينسى الجوع، والعبد الفطن لا يشاهد بلاء من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة.

الفائـدة الخامسـة: وهي من أكـبر الفوائـد، كسـر شـهوات المعاصـي كلهـا، والاسـتيلاء على النفس الأمارة بالسوء، فإن منشأ المعاصي كلهـا الشـهوات والقوى، ومادة القوى والشهوات لا محالة الأطعمـة، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة.

الفائدة السادسة: دفع النـوم، فـإن من شـبع شـرب كثـيراً، ومن كـثر شـربه كـثر نومـه، والنـوم مـوت فتكثـيره ينقص العمـر، ثم فضـيلة التهجـد لا تخفى، وفي النوم فواتها، ومهما غلب النـوم فـإن تهجـد لم يجد حلاوة العبادة.

الفائدة السابعة: تيسير المواظبة على العبادة.

الفائدة الثامنة: يستفيد من قلة الأكـل صـحة البـدن، ودفع الأمـراض، فـإن سـببها كـثرة الأكـل، وحصـول فضلة الأخلاط في المعدة والعروق. ثم المرض يمنع من العبـادات، ويشـوش القلب، ويمنـع من الـذكر والفكر، وينغص العيش.

الفائـدة التاسـعة: خفـة المؤنـة، فـإن من تعـود قلـة الأكل كفاه من المال قدر يسير، والذي تعـود الشـبع صار بطنه غريماً ملازماً له.

الفائدة العاشرة: أن يتمكن من الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين، فيكون يوم القيامة في ظل صدقته، كما ورد به الخبر.

فهذه عشر فوائد، يتشعب من كل فائدة فوائد، لا ينحصر عددها ولا تتناهى فوائدها.

كتاب آفات اللسان

اللسان من النعم العظيمة، صغير جرمه، عظيم طاعته وجرمه، رحب الميدان ليس له مرد، ولا لمجاله منتهى وحدّ، له في الخير مجال، وله في الشر ذيل سحب، فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان، سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرف هار، إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله.

عظيم خطر اللسان:

خطر اللسان عظيم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وبكِ على خطيئتك) وقال عليه الصلاة والسلام: (من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفل له

بالجنة) وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل النار، فقال: (الفم والفرج)

قال معاذ بن جبل: قلت يا رسول الله: أنؤاخذ بما نقول؟ قال: ثكلتك أمك، يا بن جبل، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟)

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يشير إلى لسانه، ويقول: هذا الذي أوردني المهالك.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: والله الذي لا إله إلا هو، ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان.

وقال طاوس: لساني سبع إن أرسلته أكلني.

وقال الحسن: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه.

الكلام فيما لا يعنيك:

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك....ولا تتكلم بما أنت نستغن عنه، ولا حاجة بك إليه، فإنك مضيع به زمانك، ومحاسب على عمل لسانك، وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، لأنك لو....هللت الله سبحانه وذكرته وسبحته، لكان خيراً لك، فكم من كلمة يبنى بها قصراً في الجنة؟ ومن قدر أن يأخذ كنزاً من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسرا خسرنا مبيناً. وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى، واشتغل بمباح لا يعنيه، فإنه

وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)

وقال مجتهد: سمعت ابن عباس يقول: لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنه فضل، ولا آمن عليك الوزر. وقيل للقمان الحكيم: ما حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيت، ولا أتكلف ما لا يعنيني. وقال مورق العجلي: أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة، لم أقدر عليه، ولست بتارك طلبه، قالوا: وما هو؟ قال: السكوت عما لا يعنيني.

وحدّ الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم، ولم تستضر به في حال و لا مال، مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك، وما رأيت فيها من جبال وأنهار، وما وقع لك من الوقائع، وما استحسنته من الأطعمة والثياب، وما تعجبت منه. فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم، ولم تستضر.

ومن جملتها: أن تسأل غيرك عما لا يعنيك، فأنت بالسؤال مضيع وقتك، وقد ألجأت صاحبك أيضاً بالجواب إلى التضييع.

والعلاج أن يعلم أن الموت بين يديه، وأنه مسئول عن كل كلمة، وأن أنفاسه رأس ماله، وأن يلزم نفسه السكوت عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه.

فضول الكلام:

فضول الكلام...مذموم، وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني، والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة. فإن من يغنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر، ومهما تأتى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين، فالثانية فضول، أي: فضل عن الحاجة، وهو أيضاً مذموم _ لما سبق _ وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر. قال عطاء بن رباح: إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو أمرا بمعروف، أو نهياً عن منكر، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها، أتنكرون أن عليكم حافظين كراماً كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره، كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه.

واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر، بل المهم محصور في كتاب الله تعالى، قال الله عز وجل: (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاح بين الناس) [النساء:114]

وقال ابن مسعود: أنذركم فضول كلامكم، حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته

وقال الحسن: ابن آدم بسطت لك صحيفتك، ووكل بها ملكان كريمان، يكتبان أعمالك، فاعمل ما شئت وأكثر وأقلّ.

وقال إبراهيم التيمي: إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فإن كان له تكلم، وإلا أمسك، والفاجر إنما لسانه رسلا، رسلا.

وقال الحسن: من كثر كلامه كثر كذبه، ومن كثر كذبه كثرت ذنوبه.

الخوض في الباطل:

وهو الكلام في المعاصي، كحكاية أحوال النساء، ومجالس الخمر، ومقامات الفساق،

وتنعم الأغنياء، وتجبر الملوك، ومراسمهم المذمومة، وأحوالهم المكروهة، فإن كل ذلك بما لا يحل الخوض فيه، وهو حرام.

ومن يكثر الكلام فيما لا يعني لا يؤمن عليه الخوض في الباطل. وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها، فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا. وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها، فقد قال بلال بن الحارث: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ بها ما بلغت فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من

سخط الله، ما يظن أن تبلغ به ما بلغت، فيكتب الله عليه سخطه إلى يوم القيامة.) وكان علقمة يقول: كم من كلام منعنيه حديث بلاب بن الحارث.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالاً يرفعه الله بها في أعلى الجنة.

وقال سلمان: أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً في معصية الله.

وقال ابن سيرين: كان رجل من الأنصار يمر بمجلس لهم، فيقول: توضئوا، فإن بعض ما تقولون شر من الحدث.

فهذا هو الخوض بالباطل، ويدخل فيه: حكاية ما جرى بين من قتال الصحابة، على وجه يوهم الطعن في بعضهم. وكل هذا باطل، والخوض فيه خوض في الباطل، نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه.

المراء والجدال:

وهو منهي عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما ضل قوم بعد أن هداهم الله تعالى إلا أوتوا الجدل)

قال مسلم بن يسار: إياكم والمراء فإنه ساعة جهل العالم وعندها يبتغي الشيطان زلته وقال مالك بن أنس رحمه الله: ليس هذا الجدال من الدين في شيء. وقال: المراء يقسي القلوب، ويورث

الضـغائن. وقـال لقمـان يـا بـني، لا تجـادل العلمـاء فيمقوتــك. وقــال بلال بن ســعد: إذا رأيت الرجــل لجوجاً مماريا معجباً برأيه فقد تمت خسارته.

وحدّ المراء هو كل اعتراض على كلام الغـير بإظهـار خلل فيه، إما في اللفظ، وإما في المعنى، وإمــا في قصد المتكلم. وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض، فكل كلام سمعته فإن كان حقاً فصدّق به، وإن كـان باطلاً أو كذباً ولم يكن متعلقاً بـأمور الـدين فاسـكت عنه. وأمـا المجادلـة فعبـارة عن قصـد إفحـام الغـير وتعجيزه، وتنقيصـه بالقـدح في كلامـه، ونسـبته إلى القصور والجهل فيه.

وينبغي للإنسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة، وإذا رأى مبتدعاً تلطـف في نصـحه في خلـوة لا بطريـق الجدال.

وأمــا البــاعث على هــذا فهــو الــترفع بإظهــار العلم والفضـل، والتهجم على الغـير بإظهـار نقصـه. وهمـا شهوتان باطنتـان للنفس قويتـان لهـا. وأمـا علاجـه: فهو بأن يكسر الكبر الباعث لـه على إظهـار نفسـه. وكل من اعتاد المجادلـة مـدة، وأثـنى النـاس عليـه، ووجـد لنفسـه بسـببه عـزاً وقبـولاً، قـويت فيـه هـذه المهلكات، ولا يستطيع عنهـا نزوحـاً إذا اجتمـع عليـه سلطان الغضب والكبر والرياء وحب الجـاه والتعـزز بالفضل، وآحاد هذه الصفات يشق مجاهـدتها فكيـف بمجموعها؟

الخصومة:

وهي أيضاً مذمومة، والخصومة لجاج في الكلام ليستوفي به مال، أو حق مقصود، وذلك تارة يكون ابتداء، وتارة يكون اعتراضاً.

قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم)

فإن قلت: إذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه، فكيف يكون حكمه وكيف تذم خصومته؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذي يخاصم بالباطل، والذي يخاصم بغير علم. فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة، ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلاً، فإن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر، والخصومة توغر الصدر، وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه، وبقى الحقد بين المتخاصمين، حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته، ويطلق اللسان في عرضه، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات، وأقل ما فيه تشويش خاطره، حتى إنه في صلاته، يشتغل بمحاجة خصمه، فلا يبقى الأمر على حد الواجب. فالخصومة مبدأ كل شر، وكذا المراء والجدال، فينبغي إلا يفتح بابه إلا لضرورة، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان

والقلب عن تبعات الخصومة، وذلك متعذر جداً، فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم، ولا تذم خصومته، إلا أنه إن كان مستغنياً عن الخصومة فيما خاصم فيه، لأن عنده ما يكفيه، فيكون تاركاً للأولى، ولا يكون أثماً، نعم أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام، وما ورد فيه من الثواب.

التقعر في الكلام:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أبغضكم إلى وأبعدكم مني مجلساً الثرثارون، المتفيهقون، المتشدقون في الكلام) وقال فاطمة رضي الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم، يأكلون ألوان الطعام، ويلبسون ألوان الثياب، ويتشدقون في الكلام.)

وقال عمر رضي الله عنه: شقائق الكلام من شقائق الشيطان.

التقعر في الكلام بالتشدق، وتكلف السجع والفصاحة، كل ذلك من المذموم، ومن التكلف الممقوت...فينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده، ومقصود الكلام التفهيم للغرض، وما وراء ذلك تصنع مذموم، ولا يدخل في هذا تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير، من غير إفراط أو إغراب، فإن

المقصود منها تحريك القلوب وتشـويقها...فلرشـاقة اللفظ تأثير فيه، فهو لائق به.

الفحش وبذاءة اللسان:

وهو مذموم منهي عنه، ومصدره الخبث واللؤم، قال صلى الله عليه وسـلم: (إيـاكم والفحش، فـإن اللـه تعــالى لا يحب الفحش ولا التفحش) وقــال عليــه الصلاة والسلام: (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعـان ولا الفاحش ولا البذي)

فأمــا حــده وحقيقتــه فهــو التعبــير عن الأمــور المستقبحة بالعبارات الصـريحة، وأكـثر ذلـك يجـري في ألفاظ الوقاع، وما يتعلق به، فـإن لأهـل الفسـاد عبارات صريحة فاحشة يسـتعملونها، وأهـل الصـلاح يتحاشون عنها، بل يكنون عنها.

والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء، وإما الاعتيـاد الحاصل من مخالطة الفساق، وأهل الخبث واللؤم.

المزاح:

وأصله مـذموم منهي عنـه، إلا قـدراً يسـيراً يسـتثنى منه، فإن قلت: المزاح فيه انبساط وطيب قلب فلم ينهى عنه؟ فـاعلم أن المنهي عنـه الإفـراط فيـه، أو المداومة عليه. أما المداومة فلأنـه اشـتغال بـاللعب والهـزل فيـه، واللعب مبـاح، ولكن المواظبـة عليـه مذمومة، وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك، وكـثرة الضـحك تميت القلب، وتـورث الضـغينة في

بعض الأحوال، وتسقط المهابة والوقار. فما يخلو من هذه الأمور فلا يذم، كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً.) إلا أن مثله يقدر أن يمزح، ولا يقول إلا حقاً، وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يُضحك الناس كيفما كان.

فإن قلت: قد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهى عنه؟ فأقول: إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهو أن تمزح، ولا تقول إلا حقاً، ولا تؤذي قلباً، ولا تفرط فيه، وتقتصر عليه أحياناً على الندور فلا حرج عليك.

الشعر:

الشعر كلامه حسنه حسن، وقبيحه قبيح، إلا أن التجرد له مذموم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه، خير له من أن يمتلئ شعراً.)

وسئل بعضهم عن شيء من الشعر، فقال: اجعل مكان هذا ذكراً، فإن ذكر الله خير من الشعر. وعلى الجملة فإنشاء الشعر ونظمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره.

اللعن:

إما لحيوان أو جماد أو إنسان، كل ذلك مذموم، قال صلى الله عليه وسلم: (لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بجهنم) واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل، وهو الكفر والظلم، بأن يقول: لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين.

السب:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر) وقال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أوصني، فقال: (عليك بتقوى الله، وإن أمرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك، فلا تعيره بشيءٍ فيه، يكن وباله عليه، وأجره لك، ولا تسبن شيئاً) قال: فما سببت شيئاً بعد.

السخرية والاستهزاء:

وهذا محرم مهما كان مؤذياً كما قال تعالى: (أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساءٍ عسى أن يكن خيراً منهن) [الحجرات:11] ومعنى السخرية: الاستهانة والتحقير، والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء.

إفشاء السر:

وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف، قال عليه الصلاة والسلام: (إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة) وهو حرام إذا كان فيه إضرار، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار. قال الحسن: إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك.

الوعد الكاذب:

فإن اللسان سباق إلى الوعد، ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء، فيصير الوعد خلفاً، وذلك من أمارات النفاق، قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) [المائدة:1] وكان ابن مسعود لا يعد وعداً، إلا ويقول: إن شاء الله. وهو الأولى.

ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلا بدَّ من الوفاء إلا أن يتعذر، فإن كان عند الوعد عازماً على أن لا يفي، فهذا هو النفاق، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أربع من كن فيه كان منافقاً، ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من نفاق حتى يدعها، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر) وهذا ينزل على عزم الخلف، أو ترك الوفاء من غير عذر.

الكذب في القول واليمين:

وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)

وقال عليه الصلاة والسلام: (من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين)

وقال صلى الله عليه وسلم (إن التجار هم الفجار) فقيل: يا رسول الله، أليس الله قد أحل البيع؟ قال: (نعم، ولكنهم يحلفـــون فيـــأثمون، ويحـــدثون فيكذبون) وقال صلى الله عليه وسلم: (ويل للـذي يحدث فيكذب، ليضحك به القوم، ويل له، ويـل لـه) وقال عليه الصـلاة والسـلام: (من حلـف على يمين بإثم ليقتطع بها مـال امـرئ مسـلم بغـير حـق، لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان)

قال علي رضي الله عنه: أعظم الخطايـا عنـد اللـه: اللسان الكذوب.

قال عمر بن عبدالعزيز: والله ما كـذبت منـذ علمت أن الكذب يشين صاحبه.

الغيبة:

قـد نص اللـه سـبحانه على ذمهـا في كتابـه، وشـبه صاحبها بآكـل لحم الميتـة، فقـال تعـالى: (ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكـل لحم أخيـه ميتـاً فكرهتُمُـوهُ) [الحجـرات:12] وقـال عليـه الصـلاة والسلام: (كل المسـلم على المسـلم حـرام، دمـه، وماله، وعرضه) وقال صـلى اللـه عليـه وسـلم: (لا تحاسـدوا ولا تباغضـوا ولا تفاحشـوا ولا تـدابروا، ولا يغتب بعظكم بعضاً، وكونوا عباد اللـه إخوانـاً) وقـال

عليه الصلاة والسلام: (مررت ليلـة أسـري بي على أقــوام يخمشــون وجــوههم بأظــافيرهم، فقلت: يــا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يغتـابون النـاس ويقعون في أعراضهم)

قال عمر رضي اللـه عنـه: عليكم بـذكر اللـه تعـالى فإنه شفاء، وإياكم وذكر النـاس فإنـه داء. وقـال ابن عباس رضي اللـه عنهمـا: إذا أردت أن تـذكر عيـوب صاحبك فاذكر عيوب نفسك. وقال أبو هريرة رضــي اللـه عنـه: يبصـر أحـدكم القـذى في عين أخيـه، ولا يبصر الجذع في عين نفسـه. وقـال بعضـهم: أدركنـا السـلف وهم لا يعـدرون العبـادة في الصـوم ولا في الصلاة، ولكن في الكف عن أعراض عن الناس.

حدّ الغيبة:

اعلم أن حدَّ العيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرته بنقص في بدنه، أو نسبه، أو في خلقــه، أو في فعله، أو في قوله، أو في دينـه، أو في دنيـاه، حتى في ثوبه وداره ودابته.

واعلم أن الذكر باللسان إنمـا حـرم لأنـه فيـه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه، فالتعريض به كالتصريح، والفعل فيـه كـالقول، والإشـارة والإيمـاء والغمز والهمز والكتابة والحركة، وكل مـا يفهم فهـو داخل في الغيبة وهو حرام.

البواعث على الغيبة:

الأول: أن يشفي الغيظ، وذلك أنه إذا جرى سبب غضب به عليه، فإنه إذا هاج غضبه يشفيه بذكر مساويه، فيسبق لسانه إليه بالطبع إن لم يكن ثمّ دين وازع، وقد يمتنع الغيظ عند الغضب، فيحتقن الغضب في الباطن، فيصير حقداً ثابتاً، فيكون سبباً دائماً لذكر المساوي، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة.

الثاني: موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء، ومساعدتهم على الكلام، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض، فيرى أنه لو أنكر عليهم استثقلوه، ونفروا منه، فيساعدهم ويرى أن ذلك من حسن العشرة، ويظن أنه مجاملة في الصحبة.

الثالث: أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده، ويطول لسانه عليه، أو يقبح حاله عند محتشم، أو يشهد عليه بشهادة، فيبادره قبل أن يقبح هو حاله، ويطعن فيه.

الرابع: أن ينسب إلى شيء، فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله، وكان من حقه أن يبرئ نفسه، ولا يذكر الذي فعل.

الخامس: إرادة التصنع والمباهاة، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره، فيقول فلان جاهل، وفهمه ركيك، وكلامه ضعيف. وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه.

السادس: الحسد: وهو أنه ربما يحسد من يثني الناس عليه، ويحبونه ويكرمونه، فيريد زوال تلك النعمة عنه، فلا يجد سبيلاً إليه إلا القدح فيه.

السابع: اللعب والهزل وتزجية الوقت بالضحك، فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة.

الثامن: السخرية والاستهزاء، استحقاراً له، فإن ذلك يجرى في الحضور، وفي الغيبة. ومنشؤه التكبر.

علاج الغيبة:

أن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه، فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل، ومشبه عنده بآكل الميتة، بل العبد يدخل النار بأن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته، وربما تنقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه فيحصل بها الرجحان، ويدخل بها النار. وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله، وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب.

الأعذار المرخصة في الغيبة:

الأول: التظلم، فالمظلوم له أن يتظلم إلى السلطان، إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به، قال عليه الصلاة والسلام: (إن لصاحب الحق مقالاً)

الثاني: الاستعانة على تغير المنكر، ورد العاصي إلى منهج الصلاح.

الثالث: الاستفتاء كما يقول للمفتي: ظلمني أبي، أو زوجتي، أو أخي، فكيف طريقي في الخلاص؟

الرابع: تحذير المسلم من الشر، فإذا رأيت فقهياً يتردد إلى مبتدع، أو فاسق، وخفت أن تتعدى إليه بدعته، وفسقه، مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والفسق، لا غيره.

الخامس: أن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرب عن عيبه، كالأعرج، والأعمش، فلا إثم على من يقول: روى أبو الزناء عن الأعرج، وسلمان عن الأعمش.

السادس: أن يكون مجاهراً بالفسق كالمخنث وصاحب المخور والمجاهر بشرب الخمر، بحيث لا يستنكف من أن يذكر به، فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا إثم عليك

النميمة:

قال الله تعالى: (ويل لكل همزةٍ لمزةٍ) [الهمزة: 1] قيل الهمزة: النمام.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة نمام)

حدّ النميمة:

اعلم أن اسم النميمة إنما يطلق في الأكثر على من ينمّ قول الغير إلى المقول فيه، كما تقول: فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا، وليست النميمة مختصة به، بل حدها كشف ما كره كشفه، سواء كرهه المنقول عنه، أو المنقول إليه، أو كرهه ثالث. وسواء كان الكشف بالقول، أو بالكتابة، أو بالرمز، أو بالإيماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال.

ما يجب على من نقلت إليه النميمة:

كل من حملت إليه النميمة، وقيل له: إن فلانا قال فيك كذا وكذا، فعليه ستة أمور:

الأول: أن لا يصدقه، لأن النمام فاسق، وهو مردود الشهادة، قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإٍ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالةٍ) [الحجرات:6]

الثاني: أن ينهاه عن ذلك، وينصح له، ويقبح عليه فعله، قال الله تعالى: (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) [لقمان:17]

الثالث: أن يبغضه في الله تعالى، فإنه بغيض عند الله تعالى، ويجب بغض من يبغضه الله

الرابع: أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى: (اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم) [الحجرات:12]

الخامس: أن لا يحملك ما حكي لك على التجسس، والبحث للتحقق، اتباعاً لقول الله تعالى: (ولا تجسسوا) [الحجرات:12]

السادس: أن لا ترضي لنفسك ما نهيت النمام عنه، فلا تحكى نميمته فتقول: فلان قد حكى لي كذا وكذا، فتكون به نماماً ومغتاباً، وتكون قد أتيت ما عنه نهيت.

ذكر أن حكيماً زاره بعض إخوانه فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه فقال له: قد أبطأت في الزيارة، وأتيت بثلاث جنايات: بغضت أخي إلي، وشغلت قلبي الفارغ، واتهمت نفسك الأمينة.

قال بعضهم: النميمة مبنية على الكذب والحسد والنفاق وهي أثافي الذل

كلام ذي اللسانين:

كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعادين، ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من كان له وجهان في الدنيا، كان له لسانان من نار يوم القيامة) وقال عليه الصلاة والسلام: (تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بحديث، وهؤلاء بحديث.)

المدح:

والمدح يدخله ست آفات، أربع في المـادح، واثنتـان في الممدوح. فأما المادح:

فالأولى: أنه قد يفرط فينتهي به إلى الكذب.

الثانيـة: أنـه قـد يدخلـه الريـاء، فإنـه بالمـدح مُظهـر للحب.

الثالثة: أنه قد يقول ما لا يتحققـه ولا سـبيل لـه إلى الاطلاع عليه.

الرابعة: أنه قد يفرح الممدوح، وهو ظالم أو فاسق، وذلك غير جائز.

وأما الممدوح فيضره من وجهين:

أحدهما: أنه يحدث فيه كبراً وإعجاباً وهما مهلكان.

الثاني: أنه إذا أثنى عليه الخير فرح به، وفتر ورضـي عن نفسه، وقل تشميره.

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

الغضب شعلة نار، ويستكبرها الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد، كاسـتخراج الحجـر النـار من الحديـد، ومن نتائج الغضب: الحقد، والحسد، وبهما هلــك من هلــك، وفســد من فســد. وإذا كـان الحقـد والحسـد والغضب، مما يسوق العبد إلى مواطن العطب، فما أحوجه إلى معرفـة معاطبـه ومسـاويه! ليحـذر ذلـك ويتقيه، ويميطه عن القلب إن كان وينفيـه، ويعالجـه

إن رسخ في قلبه ويداويه، فـإن من لا يعـرف الشـر يقع فيه، ومن عرفة فالمعرفة لا تكفيه، ما لم يعرف الطريق الذي به يدفع الشر ويقصيه.

الغضب:

عن عكرمة في قوله تعالى: (وسيداً وحصــوراً) [آل عمران:39] قال: السيد الذي لا يغلبه الغضب

روى أبو هريرة أن رجلاً قال: يا رسـول اللـه، مـرني بعمـل وأقلـل، فقـال: (لا تغضـب) ثم أعـاد عليـه، فقـال: (لا تغضـب) وقـال عليـه الصـلاة والسـلام: (ليس الشديد بالصرعة، وإنما الشـديد الـذي يملـك نفسه عند الغضب)

وقال سليمان بن داود عليهما السلام: يا بـني، إيـاك وكـثرة الغضـب، فـإن كـثرة الغضـب تسـتخف فـؤاد الرجل الحليم.

قال بعضهم: إياك والغضـب، فإنـه يصـيرك إلى ذلـة الاعتذار.

قيل لعبدالله بن المبارك: أجمل لنا حسن الخلق في كلمة. قال: لا تغضب.

وقد قيل: الغضب عدو العقل، والغضب غول العقل.

قيل لحكيم: ما أملك فلانا لنفسـه! قـال: إذا لا تذلـه الشهوة، ولا يصرعه الهوى، ولا يغلبه الغضب.

حقيقة الغضب ودرجاته:

قوة الغضب محلها القلب، ومعناها غليـان دم القلب بطلب الانتقام، والناس في هذه القوة على درجـات ثلاث، من: التفريط، والإفراط، والاعتدال.

أمـا التفريـط: فبفقـد هـذه القـوة أو ضـعفها، وذلـك مذموم، وهو الذي يُقال فيه: إنه لا حمية لـه. ولـذلك قال الشافعي رحمه الله: من استغضب فلم يغضـب فهو حمار.

وأما الإفراط: فهو أن تغلب هذه الصفة حـتى تخـرج عن سياسة العقـل والـدين وطاعتـه ولا يبقى للمـرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار.

وسبب غلبتـه أمـور غريزيـة، وأمـور اعتياديـه، فـرب إنسان هو بالفطرة مسـتعد لسـرعة الغضـب، حـتى كأن صورته في الفطرة صورة غضــبان، ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب، لأن الغضب من النار. وأمـا الأسباب الاعتياديـة: فهـو أن يخالـط قومـا يتبجحـون بتشــفي الغيــظ، وطاعــة الغضــب، ويســمون ذلــك شجاعة ورجولة.

ومن آثـار هـذا الغضـب في الظـاهر: تغـير اللـون، وشـدة الرعـدة في الأطـراف، وخـروج الأفعـال عن الترتيب والنظام، واضطراب الحركـة والكلام، حـتي يظهر الزبد على الأشداق، وتحمـر الأحـداق، وتنقلب المنـاخر، وتسـتحيل الخلقـة، ولـو رأى الغضـبان في حالة غضبه قبح صورته لسكن غضـبه، حيـاء من قبح

صورته، واستحالة خلقته، وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره، فإن الظاهر عنوان الباطن.

وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام الذي يستحيى منه ذو العقل. ويستحيى منه قائله عند فتور الغضب.

وأما أثره على الأعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن.

وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه فالحقد والحسد وإضمار السوء.

[88]

فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة، وخسة النفس في احتمال الذل والضيم في غير محله، فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه. ومن مال غضبه إلى لإفراط حتى جره إلى التهور، واقتحام الفواحش، فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب، ويقف على الوسط بين الطرفين، فهو الصراط المستقيم، فإن عجز عنه فليطلب القرب منه، فليس كل من عجز عن الاتيان بالخير كله، ينبغي أن يأتي بالشر، ولكن بعض الشر أهون من بعض، وبعض الخير أرفع من بعض، فهذه حقيقة الغضب، ودرجاته، نسال الله حسن التوفيق لما يرضيه.

بيان الأسباب المهيجة للغضب وطرق علاجها:

الأسباب المهيجة للغضب: الزهو، والعجب، والمزاح، والممـاراة، والغـدر، وشـدة الحـرص على فضـول المال والجاه، وهي بأجمعها أخلاق رديئـة، ومذمومـة شرعاً، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسـباب فلا بد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها

وكـل خلـق من هـذه الأخلاق، وصـفة من هـذه الصـفات، يفتقـر في علاجـه إلى رياضـة وتحمـل مشـقة، والمواظبـة على مباشـرة أضـدادها مـدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفـة هينـة على النفس، فإذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل، وتخلصت من الغضب الذي يتولد منها.

علاج الغضب بعد هيجانه:

يعالج الغضب بعد هيجانه بمعجون العلم والعمل، أما العلم فبأمور:

الأول: أن يتفكر في الأخبار في فضـل كظم الغيـظ، والحلم، والاحتمـال، والعفـو، فـيرغب في ثوابـه، فتمنعـه شـدة الحـرص على ثـواب الكظم عن التشفي، والانتقام، وينطفئ عنه غيظه.

[89]

الثاني: أن يخوف نفسه بعقاب الله، وهـو أن يقـول: قدرة الله علي أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فلـو أمضـيت غضـبي عليـه، لم آمن أن يمضـي اللـه غضبه عليّ يوم القيامة أحوج ما أكون إلى العفو.

الثـالث: أن يحـذر نفسـه عاقبـة العـداوة والانتقـام، وتشمر العدو لمقابلته، والسـعي في هـدم أغراضـه، والشــماتة بمصــائبه، وهــو لا يخلــو من المصــائب، فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الـدنيا إن كـان لا يخاف من الآخرة.

الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عنـد الغضـب، بـأن يتذكر صورة غيره عند الغضب.

الخـامس: أن يتفكـر في السـبب الـذي يـدعوه إلى الانتقام، ويمنعه من كظم الغيظ، ولا بد أن يكون لـه سبب، مثل: قول الشيطان له: إن هـذا يحمـل منـك على العجز، وصغر النفس، والذل، والمهانة، وتصـير حقيراً في أعين الناس! فيقول لنفسه: مـا أعجبـك!، تأنفين من الاحتمال الآن، ولا تـأنفين من خـزى يـوم القيامة.

أمــا العمــل: فــأن تقــول بلســانك: أعــوذ باللــه من الشـيطان الـرجيم، فـإن لم يـزل بـذلك فـاجلس إن كنت قائمـاً، واضـطجع إن كنت جالسـاً، واقـرب من الأرض الـتي منهـا خلقت لتعـرف بـذلك ذل نفسـك، واطلب بالجلوس والاضطجاع السـكون، فـإن سـبب الغضب الحرارة، وسبب الحرارة الحركة.

فضيلة كظم الغيظ:

قال الله تعالى: (والكاظمين الغيـظ) [آل عمـران: 134] وذكر ذلك في معرض المدح.

وقال لقمان لابنه: يا بني، لا تذهب ماء وجهك بالمسألة، ولا تشف غيظك بفضيحتك، واعرف قدرك تنفعك معيشتك.

[90]

بيان فضيلة الحلم:

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم إلى تكلف الحلم، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، ولكن إذا تعود ذلك مدة، صار ذلك اعتياداً، فلا يهيج الغيظ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب، وهو الحلم الطبيعي. وهو دلالة كمال العقل، واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل.

وعن الحسن في قوله تعالى: (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) [الفرقان:63] قال: حلماء، إن جهل عليهم لم يجهلوا.

قال أبو هريرة: إن رجلاً قال: يا رسول، إن لي قرابة أصلهم ويقطعون، وأحسن إليهم ويسيئون، ويجهلون علي وأحلم عنهم. قال: (إن كان كما تقول، فكأنما تسفهم المل، ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك.) وقال عليه الصلاة والسلام: (إن فيك يا أشج خلقين يحبهما الله ورسوله، الحلم والأناة)

وقال عمر رضـي اللـه عنـه: تعلمـوا العلم، وتعلمـوا للعلم السكينة والحلم.

وقال علي رضي الله عنه: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكـثر علمـك ويعظم حلمـك. وقـال: إن أول عـوض الحليم من حلمـه، أن النـاس كلهم أعوانه على الجاهل. وقال معاويـة رضـي اللـه عنه: لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله. وقال أكثم بن صيفي: دعامـة العقـل الحلم، وجمـاع الأمر الصبر.

وقال أيوب: حلم ساعة يدع شراً كثيراً.

وقال الأحنف بن قيس: لست بحليم، ولكني أتحلم.

وقال بعض العلمـاء: إن الحلم أرفـع من العقـل، لأن الله تعالى تسمى به.

[91]

الحقد:

اعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجزه عن التشــفي في الحـال، رجـع إلى البـاطن، واحتقن فيـه فصـار حقداً. ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله، والبغضة له، والنفار عنه، وأن يدوم ذلك ويبقى. فالحقد ثمرة الغضب.

ثمار الحقد:

الحقد يثمر ثمانية أمور:

الأول: الحسد، وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه، فتغتم بنعمة إن أصابها، وتسر بمصيبة إن نزلت به.

الثاني: أن تزيد على إضمار الحسد في الباطن، فتشمت بما أصابه من البلاء.

الثالث: أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه، وإن طلبك وأقبل عليك.

الرابع: وهو أن تعرضه عنه استصغاراً له.

الخامس: أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وإفشاء سر، وهتك ستر، وغيره.

السادس: أن تحاكيه استهزاء به، وسخرية منه.

السابع: إيذاؤه بالضرب، وما يؤلم بدنه.

الثامن: أن تمنعه حقه من قضاء دين، أو صلة رحم، أو رد مظلمة، وكل ذلك حرام.

أحوال المحقود عليه عند القدرة:

الأول: أن يستوفي حقه الذي يستحقه، من غير زيادة، أو نقصان، وهو العدل.

الثاني: أن يحسن إليه بالعفو، والصلة، وذلك هو الفضل.

الثالث: أن يظلمه بما لا يستحقه، وذلك هو الجور، وهو اختيار الأراذل، والثاني هو اختيار الصديقين، والأول هو منتهى درجات الصالحين.

فضيلة العفو والإحسان:

اعلم أن معنى العفو أن يستحق حقاً فيسقطه، ويبرى عنه من قصاص أو غرامة، وهو غير الحلم وكظم الغيد، فلذلك أفردناه، قال الله تعالى: (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) [الأعراف:199] وقال الله تعالى: (وأن تعفوا أقرب للتقوى) [البقرة:237]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسل: (ثلاث والذي نفسي بيده، لو كنت حلافاً لحلفت عليهن: ما نقص مال من صدقة فتصدقوا، ولا عفا رجل عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر)

سئل أبو الدرداء: عن أعزّ الناس، قال: الذي يعفو إذا قدر، فاعفوا يعزكم الله.

قال إبراهيم التيمي: إن الرجل ليظلمني فأرحمه. ودخل رجل على عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، فجعل يشكو إليه رجلاً ظلمه، ويقع فيه، فقال له عمر: إنك أن تلقى الله، ومظلمتك كما هي، خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها.

وقال بعضهم: ليس الحليم من ظُلِمَ فحلم، حتى إذا قدر انتقم، ولكن الحليم من ظُلِمَ فحلم، حتى إذا

قدر عفا. وقال زياد: القدرة تذهب الحفيظة، يعني: الحقد والغضب.

وجلس ابن مسعود يبتاع طعاماً، فابتاع، ثم طلب الدراهم، وكانت في عمامته، فوجدها قد حلت، فقال: لقد جلست وإنها لمعي، فجعلوا يدعون على من أخذها، ويقولون: اللهم اقطع يد السارق، الذي أخذها، اللهم افعل به كذا. فقال ابن مسعود: اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة، فبارك له فيها، وإن كان حملته جراءة على الذنب، فاجعله آخر ذنوبه.

[93]

فضيلة الرفق:

اعلم أن الرفق محمود، ويضاد العنف والحدة، والعنف نتيجة الغضب والفظاظة، والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة، فالرفق في الأمور ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق.

وقد أثني النبي صلى الله عليه وسلم على الرفق، فقال عليه الصلاة والسلام: (إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي عليه ما لا يعطى على العنف) وقال صلى الله عليه وسلم: (من يحرم الرفق، يحرم الخير كله)

وقال عليه الصلاة والسلام: (أتدرون من يحرم على النار يوم القيامة: كل هين، لين، سهل، قريب.)

وقال بعضهم: مـا أحسـن الإيمـان يزينـه العلم، ومـا أحسن العلم يزينه العمل، وما أحسـن العمـل يزينـه الرفق.

وقـال عمـر بن العـاص لابنـه عبداللـه: مـا الرفـق؟ فقال: تكون ذا أناة فتلاين الولاة. قال: فما الخــرق؟ قال: معاداة إمامك، ومناوأة من يقدر على ضررك.

وعن أبي عون الأنصاري قال: ما تكلم الناس بكلمـة صــعبة، إلا وإلى جانبهــا كلمــة ألين منهــا، تجــرى مجراها.

وقال الحسن: المؤمن وقـاف متـأن، وليس حـاطب ليل.

فهذا ثناء أهل العلم على الرفق، وذلك لأنـه محمـود ومفيد في أكثر الأحوال، وأغلب الأمور، والحاجة إلى العنف قد تقع ولكن على النـدور، وإنمـا الكامـل من يميز مواقـع الرفـق عن مواقـع العنـف، فيعطى كـل أمر حقه، فإن كان قاصـر البصـيرة، أو أشـكل عليـه حكم واقعــة من الوقــائع، فليكن ميلــه إلى الرفــق، فإن النجح معه في الأكثر.

الحسد:

اعلم أن الحسد من نتـائج الحقـد، والحقـد من نتـائج الغضب، فهو فرع فرعـه، والغضـب أصـل أصـله، ثم إن للحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تحاسدوا، ولا تقاطعوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً) وقال عليه الصلاة والسلام: (إنه سيصيب أمتي داء الأمم) قالوا: وما داء الأمم؟ قال: (الأشر والبطر والتكاثر، والتنافس في الدنيا، والتباعد والتحاسد، حتى يكون الغي ثم الهرج)

وقال أبو الدرداء: ما أكثر عبد ذكر الموت، إلا قلّ فرحه، وقل حسده.

وقال معاوية: كل الناس أقدر على رضاه، إلا حاسد نعمة، فإنه لا يرضيه إلا زوالها.

قال أعرابي: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد، إنه يرى النعمة عليك نقمة.

وقال الحسن: ابن آدم لم تحسد أخاك؟ فإن كان الذي أعطاه لكرامته عليه، فلم تحسد من أكرمه الله؟ وإن كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره إلى النار.؟

حقيقية الحسد:

اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة، فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة، فلك فيها حالتان:

إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، وهذه الحالة تسمى حسداً.

الثانية: أن لا تحب زوالها ولا تكـره وجودهـا ودوامهـا ولكن تشتهي مثلها وهذه غبطة

فأما الأول فحرام بكل حال، إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على تهيج الفتنة، وإفساد ذات البين، وإيذاء الخلق.

وأمـا المنافسـة فليسـت بحـرام، والـذي يـدل على إباحة المنافسة، قوله تعـال: (وفي ذلـك فليتنـافس المتنافسون) [المطففين:26]

أسباب الحسد والمنافسة:

أما المنافسـة فسـببها حب مـا فيـه المنافسـة، فـإن كان ذلك أمـراً دينيـاً فسـببه حب اللـه تعـالى، وحب طاعته، وإن كان دنيويـاً فسـببه حبّ مباحـات الـدنيا والتنعم بها.

والحسد المـذموم مداخلـه كثـير جـداً....لكن يحصـر جملتها...أسباب:

السبب الأول: العداوة والبغضـاء، وهـذ أشـد أسـباب الحسد، فـإن من آذاه شـخص بسـبب من الأسـباب، وخالفه في غرض بوجوه من الوجـوه، أبغضـه قلبـه، وغضـب عليـه، ورسـخ في نفسـه الحقـد. والحقـد يقتضي التشفي والانتقام،...والحسد بسبب البغض.

السبب الثـاني: الكـبر، وهـو أن يكـون في طبعـه أن يتكـبر عليـه ويستصـغره، ويسـتخدمه، ويتوقـع منـه الانقياد لـه، والمتابعـة في أغراضـه، فـإذا نـال نعمـة

خـاف أن لا يتجمـل تكـبره، ويـترفع عن متابعتـه، أو ربما تشـوف إلى مسـاواته، أو إلى أن يرتفـع عليـه، فيعود مُتكبراً، بعد أن كان مُتكبراً عليه.

السبب الثالث: الخـوف من فـوت المقصـود، وذلـك يختص بمــتزاحمين على مقصــود واحــد، ومن هــذا الجنس تحاسـد الضـرات في الـتزاحم على مقاصـد الزوجيــة، وتحاســد الإخــوة في الــتزاحم على نيــل المنزلـة في قلب الأبـوين، للتوصـل بـه إلى مقاصـد الكرامـة والمـال، وكـذلك تحاسـد التلميـذين لأسـتاذ واحد في نيل المرتبة من قبل الأستاذ.

السبب الرابع: حب الرياسة وطلب الجاه لنفسه من غير توصل إلى مقصود، وذلك كالرجل الذي يريد أن يكـون عـديم النظـر في فن من الفنـون،...فإنـه لـو سمع بنظير له في أقصى العالم لساءه ذلـك، وأحبّ موته، أو زوال النعمة عنه التي بها يشاركه المنزلة

السبب الخامس: خبث النفس وشـحها بـالخير لعبـاد الله تعالى.

دواء الحسد:

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمـة للقلـوب. ولا تـداوى أمـراض القلـوب إلا بـالعلم والعمـل. والعلم النافع لمـرض الحسـد أن تعـرف تحقيقـاً أن الحسـد ضرر عليك في الدنيا والدين، وأنه لا ضـرر فيـه على المحسـود في الـدنيا والـدين، بـل ينتفـع بـه فيهمـا، ومهما عرفت هذا عن بصيرة، ولم تكن عدو نفســك

وصديق عدوك فارقت الحسد لا محالة، أما كونه ضرراً عليك في الدين فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده، وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته، فاستنكرت ذلك واستبشعته وهذا جناية على الدين وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلاً من المؤمنين وتركت نصيحته وفارقت أولياء الله وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى، وشاركت إبليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا، وزوال النعم، وهذه خبائث في القلب، تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب.

وأما كونه ضرراً عليك في الدنيا فهم أنك تتألم بحسدك في الدنيا، أو تتعذب به، ولا تزال في كمد، وغم، إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم، فتبقى مغموماً، محروماً، متشعب القلب، ضيق الصدر، قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك، وتشتهيه لأعدائك، فقد كنت تريد المحنة لعدوك، فتنجزت في الحال محنتك، وغمك نقداً. ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك. ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد، لما فيه من ألم القلب مع عدم النفع، فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في

الآخرة؟ فما أعجب من العاقل كيف يتعرض لسخط الله من غير نفع يناله بل مع ضرر يحتمله.

وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح، لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك، بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة فلا بد أن يدوم،إلى أجل غير معلوم، قدره الله سبحانه، فلا حيلة في دفعه، بل كل شيء عنده بمقدار، ولكل أجل كتاب.

ولعلك تقول: ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدي، وهذا غاية الجهل فإنه بلاء تشتهيه أولاً لنفسك، فإنك لا تخلو عن عدو يحسدك، فلو كانت النعمة تزول بالحسد لم يبق الله تعالى عليك نعمة، ولا على أحد من الخلق، ولا نعمة الإيمان أيضاً، لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمان، قال الله تعالى: (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم) [البقرة: 109] إذ ما يريد الحسود لا يكون، نعم هو يضلّ بإرادته الضلال لغيره.

وإن اشتهيت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك، ولا تزول عنك بحسد غيرك، فهذا في غاية الجهل والغباوة، فإن كل واحد من حمقى الحساد أيضاً يشتهى أن يختص بهذه الخاصية، ولست بأولى بغيرك. فنعمة الله تعالى عليك في إن لم تزل النعمة بالحسد، مما يجب عليك شكرها، وأنت بجهلك تكرهها.

وأما أن المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح، أما منفعته في الدين: فهو أنه مظلـوم من جهتـك لا سيما إذا أخرجك الحسد إلى القول، والفعل بالغيبة، والقدح فيه وهتك ستره، وذكر مساويه، فهـذه هـدايا تهديها إليه. أعنى أنك تهدي إليه حسناتك.

وأما منفعتـه في الـدنيا فهـو أن أهم أغـراض الخلـق مساءة الأعداء، وغمهم وشقاوتهم، وكـونهم معـذبين مغمـومين، ولا عـذاب أشـد ممـا أنت فيـه من ألم الحسد، وغايـة أمـاني أعـدائك أن يكونـوا في نعمـة، وأن تكـون في غمّ وحسـرة بسـببهم، وقـد فعلت بنفسك ما هو مرادهم.

ولذلك لا يشتهي عدوك موتك، بل يشتهي أن تطـول حياتك، ولكن في عذاب الحسد لتنظر إلى نعمة الله عليه، فينقطع قلبك حسداً.

ففـرح عـدوك بغمـك وحسـدك أعظم من فرحتـه بنعمتـه، ولـو علم خلاصـك من ألم الحسـد وعذابـه لكان ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده، فإذا تأملت هـذا عرفت أنك عدو نفسك، وصديق عدوك، إذ تعـاطيت ما تضررت به في الدنيا والآخـرة، وانتفـع بـه عـدوك في الـدنيا والآخـرة. وصـرت مـذموماً عنـد الخـالق والخلائق، شقياً في الحال والمآل، ونعمـة المحسـود دائمـة، شـئت أم أبيت. ثم لم تقتصـر على تحصـيل مراد عدوك حـتى وصـلت إلى إدخـال أعظم سـرور على إبليس الذي هـو أعـدى أعـدائك، لأنـه لمـا رآك محروماً من نعمة العلم والورع والجاه والمال الـذي

اختص بـه عـدوك عنـك، خـاف أن تحب ذلـك لـه فتشـاركه في الثـواب بسـبب المحبـة، لأن من أحب الخير للمسلمين كـان شـريكاً في الخـير، ومن فاتـه اللحاق بدرجة الأكابر في الدنيا لم يفته ثـواب الحب لهم مهما أحب ذلك، فخاف إبليس أن تحب مـا أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه فتفوز بثواب الحب، فبغضـه إليـك حـتى لا تلحقـه بحبـك كمـا لم تلحقه بعملك.

فهذه الأدوية العلمية فمهما تفكر الإنسان فيها بذهن صاف، وقلب حاضر، انطفأت نـار الحسـد من قلبـه، وعلم أنه مهلك نفسه، ومفرح عدوه، ومسخط ربـه، ومنغص عيشه.

فهذه هي أدوية الحسد، وهي نافعة جداً، إلا أنها مرة على القلوب جداً، ولكن النفع في الدواء المـرّ. فمن لم يصبر على مرارة الدواء، لم ينل حلاوة الشفاء.

كتاب ذم الدنيا

الحمد الله الذي عرف أولياءه غوائل الـدنيا وآفاتهـا، وكشـف لهم عن عيوبهـا وعوراتهـا حـتى نظـروا في شواهدها وآياتها، ووزنـوا بحسـناتها سـيئاتها، فعلمـوا أنـه يزيـد منكرهـا على معروفهـا، ولا يفي مرجوهـا بمخلوفها، ولكنها في صـورة امـرأة مليحـة تسـتميل النـاس بجمالهـا، ولهـا أسـرار سـوء، وقبـائح تهلـك

الراغــبين في وصــالها، ثم هي فــرارة عن طلابهــا، شحيحة بإقبالها، وإذا أقبلت لم يؤمن شرها ووبالهــا، إن أحسنت ساعة أســاءت ســنة، شــأنها الهــرب من طالبهــا، والطلب لهاربهــا، ومن خــدمها فاتتــه، ومن أعــرض عنهــا واتتــه، لا يخلــو صــفوها عن شــوائب الكــدورات، ولا ينفعــك ســرورها عن المنغصــات، سلامتها تعقب الســقم، وشــبابها يســوق إلى الهــرم، ونعيمهــا لا يثمــر إلا الحســرة والنــدم، فهي خداعــة مكارة، طيارة فرارة، لا تزال تتزين لطلابها حــتى إذا صاروا من أحبابها، كشرت لهم عن أنيابها، فــأذاقتهم قواتل سمامها، ورشقتهم بصوائب سهامها.

بينما أصحابها منها في ســرور، وإنعــام إذ ولت عنهــا كأنهــا أضــغاث أحلام، ثم عكــرت عليهم بــدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد، ووارتهم في أكفــانهم تحت الصعيد.

قــال رســول اللــه صــلى اللــه عليــه وســلم: (الــدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر)

وقال عليه الصلاة والسلام: (الــدنيا ملعونــة ملعــون من فيها إلا ما كان لله منها)

وقال صلى الله عليه وسلم: (ألهاكم التكاثر، يقــول ابن آدم: مالي، مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت؟)

قال الحسن رحمه الله: رحم الله أقواماً كانت الدنيا عنــدهم وديعــة، فأدوهــا إلى من ائتمنهــا عليهــا، ثم

راحوا خفافاً. وقال أيضاً رحمه الله: من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره.

قال لقمان لابنه: يا بني، إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيه ناس كثير، فلتكن سفينتك فيه تقوى الله عز وجل، وحشوها الإيمان بالله تعالى، وشراعها التوكل على الله عز وجل، لعلك تنجو، وما أراك ناجياً. وقال: يا بني، بع دنياك بآخرتك، تربحهما جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعاً.

وقال مطرف بن الشخير: لا تنظر إلى خفض عيش الملوك، ولين رياشهم، ولكن انظر إلى سرعة ظغنهم، وسوء منقلبهم.

وقال الفضيل: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى، لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى.

وقال مالك بن دينار: بقدر ما تحزن للدنيا، يخرج همّ الآخرة من قلبك، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج همّ الدنيا من قلبك. وهذا اقتباس من كلام رضي الله عنه حيث قال: الدنيا والآخرة ضرتان، فبقدر ما ترضى إحداهما تسخط الأخرى.

وقال سعيد بن مسعود: إذا رأيت العبد تزداد دنياه، وتنقص آخرته، وهو به راض، فذلك المغبون الذي يلعب بوجهه، وهو لا يشعر.

وقال عمرو بن العاص: إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثرة الأشغال، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب.

وقال أيضاً: ابن آدم يستقل ماله، ولا يستقل عمله، يفرح بمصيبته في دينه، ويجزع من مصيبته في دنياه.

وقال مالك بن دينار: اصطلحنا على حب الدنيا، فلا يأمر بعضنا بعضاً، ولا ينهى بعضنا بعضا، ولا يدعنا الله على هذا، فليت شعري أي عذاب الله ينزل علينا؟

قيل لحكيم: الدنيا لمن هي؟ قال: لمن تركها، فقيل: الآخرة لمن هي؟ قال: لمن طلبها

كتاب ذم البخل وذم حب المال

ذم المال وكراهة حبه:

قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) [المنافقون:9] وقال تعالى: (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) [التغابن:15] فمن اختار ماله، وولده على ما عند الله، فقد خسر وغبن خسراناً عظيماً. وقال تعالى: (ألهاكم التكاثر) [التكاثر:1]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول ابن آدم: مـال، مـالي، وهـل لـك من مالـك إلا مـا أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت)

مدح المال والجمع بينه وبين الذم:

اعلم أن الله تعالى قد سمى المال خيراً في مواضع من كتابه العزيز فقال جـل وعـز: (إن تـرك خـيراً) [البقـرة:180] وقـال رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم: (نعم المال الصالح للرجل الصالح) وكل مـا جاء في ثواب الصدقة والحج فهو ثناء على المال، إذ لا يمكن الوصـــول إليهمـــا إلا بـــه، وقـــال تعـــالى: (ويستخرجا كنزهما رحمة من ربـك) [الكهـف:82] وقال تعـالى ممتنـاً على عبـاده: (ويمـددكم بـأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعـل لكم أنهـاراً) [تـوح: 12]

ولا تقف على وجه الجمع بعد الـذم والمـدح، إلا بـأن تعـرف حكمـة المـال، ومقصـوده، وآفاتـه، وغوائلـه، حتى ينكشف لك أنه خير من وجـه، وشـر من وجـه، وأنه محمود من حيث هو خير، ومذموم من حيث هو شر، فإنه ليس بخيرٍ محض، ولا شـر محض، بـل هـو سبب للأمرين جميعاً، وما هذا وصفه فيمدح لا محالة تارة، ويذم أخرى.

آفات المال وفوائده:

اعلم أن المال مثل حية، فيها سم وتريـاق، ففوائـده ترياقـــه، وغوائلـــه ســـمومه، فمن عـــرف غوائلـــه

وفوائـده، أمكنـه أن يحـترز من شـره، ويسـتدر من خيره.

الفوائد:

أمـا الفوائـد، فهي تنقسـم إلى دينيـة، ودنيويـة، أمـا الدنيوية فلا حاجة إلى ذكرها، فإن معرفتها مشهورة مشتركة بين أصناف الخلق، ولـولا ذلـك لم يتهـالكوا على طلبها، وأما الدينيـة فتنحصـر جميعهـا في ثلاثـة أنواع:

النوع الأول: أن ينفقه على نفسه، إما في عبـادة، أو في الاســـتعانة على عبـــادة، أمـــا في العبـــادة، كالاسـتعانة بـه على الحج، والجهـاد، فإنـه لا يتوصـل إليهما إلا بالمال وأما فيما يقويه على العبادة، فـذلك هو المطعم والملبس والمسكن والمنكح وضـرورات المعيشة فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر كان القلب مصروفاً إلى تدبيرها فلا يتفرغ للدين.

النـوع الثـاني: مـا يصـرفه إلى النـاس، وهـو أربعـة أقسام: الصدقة، والمروءة، ووقاية العـرض، وأجـرة الاستخدام.

أما الصدقة، فلا يخفى ثوابها.

وأما المروءة فنعـنى بهـا صـرف المـال إلى الأغنيـاء والأشـراف في ضـيافة وهديـة، وإعانـة ومـا يجـرى مجراهـا. وبهـا يكتسـب الإخـوان والأصـدقاء، وبـه يكتسب صفة السخاء.

وأما وقاية العرض، فنعنى بد بذل المـال لـدفع هجـو الشـعراء، وثلب السـفهاء، وقطـع ألسـنتهم، ودفـع شرهم.

وأما الاستخدام فالأعمال التي يحتـاج إليهـا الإنسـان كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته، وتعـذر عليـه سلوك سبيل الآخرة.

النوع الثالث: مـا لا يصـرفه إلى إنسـان معين، ولكن يحصل به خير عام، كبناء المساجد، والقنـاطر، ودور المرضـى، وغـير ذلـك من الأوقـاف المرصـدة للخيرات.

الآفات:

وأما الآفات، فدينية، ودنيوية، أما الدينية فثلاث:

الأولى: أن تجر إلى المعاصي، ومهمـا كـان الإنسـان آيساً عن نوع من المعصـية لم تتحـرك داعيتـه، فـإذا استشعر القدرة عليهـا انبعثت داعيتـه، والمـال نـوع من القدرة يحرك داعية المعاصي، وارتكاب الفجور.

الثانيـة: أن يجـر إلى التنعم في المباحـات، فيصـير التنعم مألوفـاً عنـده، ومحبوبـاً، لا صـبر عنـه، ويجـر البعض منه إلى البعض، فإذا اشتد أنسه بـه، ربمـا لا يقـدر على التوصـل إليـه بالكسـب الحلال، فيقتحم الشبهات، ويخوض في المراء، والمداهنـة، والكـذب، والنفـاق، وسـائر الأخلاق الرديئـة، لينتظم لـه أمـر دنياه، ويتيسر له تنعمه.

الثالثة: وهي التي لا ينفعك عنها أحد، وهو أنـه يلهيـه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى، وكل ما شغل العبـد عن الله فهو خسران.

وصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكـراً في خصـومة الفلاح ومحاســـبته، وفي خصـــومة الشـــركاء ومنـازعتهم، وخصـومة أعـوان السـلطان، وخصـومة الأجراء على التقصير في العمارة، وصاحب التجـارة يكون متفكـراً في خيانـة شـريكه، وانفـراده بـالربح، وتقصيره في العمل، وتضيعه للمال، وكذلك صـاحب المواشي، وكذلك سائر أصناف الأموال

فهذه جملة الآفات الدنيوية، سوى ما يقاسيه أربـاب الأموال في الدنيا من الخـوف والحـزن والغم والهم والتعب في دفع الحسـاد وتجهم الصـعاب في حفـظ المال وكسـبه فـإن ترياق المـال أخـذ القـوت منـه، وصرف الباقي إلى الخيرات، ومـا عـدا ذلـك سـموم وآفات

ذم الحرص والطمع، ومدح القناعة واليأس ممـا في أيدى الناس:

ينبغي أن يكـون الفقـير قانعـاً منقطـع الطمـع عن الخلق، غـير ملتفت إلى مـا في أيـديهم، ولا حريصـاً على اكتساب المال كيف كان، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنـع بقـدر الضـرورة...فـإن تشـوف إلى الكثـير، أو طـول أملـه، فاتـه عـز القناعـة، وتـدنس لا محالـة

بالطمع، وذل الحـرص، وجـره الحـرص والطمـع إلى مســاوئ الأخلاق، وارتكــاب المنكــرات الخارقــة للمروءات، وقد جبـل الآدمي على الحـرص والطمـع وقلـة القناعـة، قـال رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم: (لـو كـان لابن آدم واديـان من ذهب، لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا الـتراب، ويتـوب اللـه علـة من تـاب.) وقـال عليـه الصـلاة والسـلام: (يهـرم ابن آدم، ويشـب معـه اثنتـان: الأمـل، وحب المال)

ولما كانت هذه جبلة للآدمي مضـلة، غزيـرة مهلكـة، أثنى الله تعالى ورسوله على القناعـة، فقـال صـلى الله عليه وسلم: (طوبى لمن هدي للإسـلام، وكـان عيشه كفافاً، وقنع به.) وقال عليه الصـلاة والسـلام: (ليس الغنى عن كـثرة العـرض، وإنمـا الغـنى غـنى النفس) ونهي عن شــدة الحــرص والمبالغــة في الطلب، فقال: (أيها الناس أجملوا في الطلب، فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له، ولن يـذهب عبـد من الـدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا، وهي راغمة)

وقـال عمـر رضـي اللـه عنـه: إن الطمـع فقـر، وإن اليأس غـنى، وإنـه من ييـأس عمـا في أيـدي النـاس استغنى عنهم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما من يوم إلا ملـك ينادي: يا بن آدم، قليل يكفيك، خير من كثير يطغيك. وقـال بعض الحكمـاء: وجـدت أطـول النـاس غمـاً الحسود، وأهنأهم عيشاً القنوع.

علاج الحـرص والطمـع، والـدواء الـذي يكتسـب بـه صفة القناعة:

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أعمـال: الصـبر، والعلم، والعمل، ومجموع ذلك خمسة أمور:

الأول: وهو العمـل، الاقتصـاد في المعيشـة والرفـق في الإنفاق، فمن أراد عـز القناعـة فينبغي أن...يـرد نفسه إلا مـا لا بـد لـه منـه، فمن...اتسـع إنفاقـه لم تمكنه القناعة.

الثاني: إذا تيسـر لـه الحـال مـا يكفيـه، فلا ينبغي أن يكـون شـديد الاضـطراب لأجـل المسـتقبل، ويعينـه على ذلك قصر الأمل، والتحقق بأن الرزق الذي قدر له لا بد وأن يأتيه، وإن لم يشتد حرصـه، فـإن شـدة الحـرص ليسـت هي السـبب لوصـول الأرزاق، بـل ينبغي أن يكون واثقاً بوعد اللـه تعـالى، إذا قـال عـز وجل: (وما من دابةٍ في الأرض إلا على الله رزقها) [هود:6]

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عـز الاسـتغناء، وما في الحرص والطمع من الذل.

الرابـع: أن يكـثر تأملـه في تنعم اليهـود والنصـارى، وأراذل النـاس، ثم ينظـر في أحـوال الأنبيـاء، وإلى سمت الخلفاء الراشدين، وسائر الصحابة والتـابعين، ويطـالع أحـوالهم، ويخـير عقلـه بين أن يكـون على مشابهة أراذل الناس، أو على الاقتداء بمن هـو أعـز

أصناف الخلق عند الله. حتى يهون بذلك عليه الصبر على الضنك والقناعة باليسير.

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الخطر، كما ذكرنا في آفات المال، وما فيه من خوف السرقة والنهب والضياع، وما في خلو اليد من الأمن والفراغ....ويتم ذلك بأن ينظر إلى من دونه في الدنيا لا إلى من فوقه، فإن الشيطان أبداً يصرف نظره في الدنيا إلى من فوقه، فيقول: لِمَ تفتر عن الطلب، وأرباب الأموال يتنعمون في المطاعم والملابس؟ ويصرف نظره في الدين إلى من دونه.

فضيلة السخاء:

اعلم أن المال إن كان مفقوداً فينبغي أن يكون حال العبد القناعة، وقلة الحرص. وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حالة الإيثار والسخاء، واصطناع المعروف، والتباعد عن الشح والبخل، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام، قال أنس رضي الله عنه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، وأتاه رجل فسأله، فأمر له بغنم كثير بين جبلين من غنم الصدقة، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم اسلموا، فإن محمد يعطى عطاء من لا يخاف الفاقة.

قال ابن السماك: عجبت لمن يشتري المماليك بماله، ولا يشتري الأحياء بمعروفه.

قيل للحسن البصري: ما السخاء؟ قال: أن تجود بمالك في الله عز وجل.

وقيل لسفيان بن عيينه: ما السخاء؟ قال: السخاء البر بالإخوان، والجود بالمال. وقال: ورث أبي خمسين ألف درهم، فبعث بها صراراً إلى إخوانه، وقال: قد كنت أسأل الله تعالى لإخواني الجنة في صلاتي، أفأبخل عليهم بالمال؟

وقال عبدالعزيز بن مروان: إذا الرجل أمكنني من نفسه، حتى أضع معروفي عنده، فيده عندي مثل يدي عنده.

عن أم درة _ وكانت تخدم عائشة رضي الله عنها _ قالت: إن معاوية بعث إليها بمال، ثمانين ومائة ألف درهم، فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس، فلما أمست قالت: يا جارية، هلم فطوري، فجاءتها بخبز وزيت، فقالت لها أم درة: ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه؟ فقالت: لو كنت ذكرتني لفعلت.

قيل لبعض الحكماء: من أحبّ الناس إليك؟ قال: من كثرت أياديه عندي

بيان ذم البخل:

قال الله تعالى: (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) [الحشر:9] وقال تعالى: (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم

بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) [آل عمران:180] وقال تعالى: (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) [النساء:37]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر) وقال عليه الصلاة والسلام: (شر ما في الرجل شح هالع، وجبن خالع)

وقال جبير بن مطعم: بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ علقت برسول الله صلى الله عليه وسلم الأعراب يسألونه، حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه، فوقف صلى الله عليه وسلم: فقال: (أعطوني ردائي، فوالذي نفسي بيده، لو كان لي عدد هذه العصاة نعماً، لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً، ولا كذاباً، ولا جباناً)

وقالت أم البنين أخت عمر بن عبدالعزيز: أف للبخيل، لو كان البخل قميصاً ما لبسته، ولو كان طريقاً ما سلكته.

وقال طلحة بن عبيدالله رضي الله عنهما: إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء، لكننا نتصبر.

وقال محمد بن المنكدر: كان يقال: إذا أراد الله بقوم شراً، أمر الله عليهم شرارهم، وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم.

وقال بشر: لقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين.

بيان الإيثار وفضله:

اعلم أن السخاء...ينقسم إلى درجات، فأرفع درجة السخاء: الإيثار، وهو أن يجود بماله مع الحاجة.

الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء، وليس بعد الإيثار درجة في السخاء، وقد أثنى الله على الصحابة رضي الله عنهم، فقال: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) [الحشر:9] وقد نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف، فلم يجد عند أهله شيئاً، فدخل عليه رجل من الأنصار، فذهب بالضيف إلى أهله، ثم وضع بين يديه الطعام، وأمر امرأته بإطفاء السراج، وجعل يمد يده إلى الطعام، كأنه يأكل ولا يأكل، حتى أكل الضيف، فلما أصبح، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: (لقد عجب الله من صنيعكم الليلة إلى ضيفكم) ونزلت: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) [الحشر:9]

وقال عمر رضي الله عنه: أهدي إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال: إن أخي كان أحوج مني إليه، فبعث به

إليه، فلم يزل واحداً يبعث به إلى آخر، حتى تداوله سبعة أبيات، ورجع إلى الأول.

قال حذيفة العدوي: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي، ومعي شيء من ماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، ومسحت به وجهه، فإذا أنا به، فقلت: أسقيك؟ فأشار إلي أن نعم، فإذا رجل يقول: آه، فأشار ابن عمي إلي أن انطلق به إليه، فجئته فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ فسمع به آخر فقال: آه، فأشار هشام انطلق به إليه، فجئته فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي، فإذا هو قد مات، رحمة الله عليهم أجمعين.

علاج البخل:

اعلم أن البخل سببه: حب المال، ولحب المال سببان:

أحدهما: حب الشهوات، التي لا وصول إليها إلا بالمال، مع طول الأمل.

الثاني: أن يحب عين المال، فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره، إذا اقتصر على ما جرت به عادته بنفقته، وتفضل آلاف، وهو شيخ بلا ولد، ومعه أموال كثيرة، ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة، ولا بمداوة نفسه عند المرض، بل صار محباً للدنانير، عاشقاً لها، يلتذ بوجودها في يده، وبقدرته عليها، فيكنزها

تحت الأرض وهو يعلم أنه تموت، فتضيع، أو يأخذها أعداؤه.

فهذه أسباب حب المال، وإنما علاج كل علة بمضادة سببها، فتعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير، وبالصبر، وتعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت، والنظر في موت الأقران، وطول تعبهم في جمع المال، وضياعه بعدهم، وتعالج التفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه، وكم من ولد لم يرث من أبيه مالاً، وحاله أحسن ممن ورث؟ وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده، يريد أن يترك ولده بخير، وينقلب هو إلى شر، وأن ولده إن كان تقياً صالحاً فالله كافيه، وإن كان فاسقاً فسيستعين بماله على المعصية، ويعالج قلبه أيضاً بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل، ومدح السخاء، وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم.

ومن الأدوية النافعة: كثرة التأمل في أحوال البخلاء، ونفرة الطبع عنهم، واستقباحهم له، فإنه ما من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره، ويستثقل كل بخيل من أصحابه.

ويعالج أيضاً قلبه بأن يتفكر في مقاصد المال؟ فلا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته، والباقي يدخره لنفسه في الآخرة، يحصل له ثواب بذله.

كتاب ذم الجاه والرياء

بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت:

اعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشـار الصـيت والاشـتهار، وهـو مـذموم، إلا من شـهره اللـه تعـالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه.

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: ما صـدق اللـه من أحب الشهرة.

وقال أيوب السختياني: والله ما صـدق اللـه عبـد إلا سره أن لا يشعر بمكانه.

وقال لرجل لبشر بن الحارث: أوصني، فقال: أخمل ذكرك، وطيب مطعمك.

وقال بشر: ما أعـرف رجلاً أحب أن يعـرف إلا ذهب دينه وافتضح، وقال أيضاً: لا يجد حلاوة الآخـرة رجـل يحب أن يعرفه الناس.

بيان فضيلة الخمول:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رب أشعث أغبر، ذي طمرين، لا يؤبـه لـه، لـو أقسـم على اللـه لأبره.) وقال عليه الصلاة والسـلام: (ألا أدلكم على أهل الجنة: كل ضعيف مستضعف، لو أقسم كل الله لأبره.)

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهـدى، أحلاس الـبيوت، سـرج الليـل، جـدد القلوب، تعرفون في أهل السماء، وتخفون في أهل الأرض.

وقال الفضيل: إن قـدرت على أن لا تعـرف فافعـل، وما عليك أن لا تعرف، وما عليك أن لا يثـنى عليـك، ومـا عليـك أن تكـون مـذموماً عنـد النـاس، إذا كنت محموداً عند الله تعالى؟

اعلم أن المذموم طلب الشـهرة، فأمـا وجودهـا من جهـة اللـه سـبحانه من غـير تكلـف من العبـد فليس بمذموم.

_____[111]

ذم الجاه ومعناه:

قال الله تعالي: (تلك الدار الآخـرة نجعلها للـذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فسـاداً) [القصـص:83] جمع بين إرادة الفساد والعلو، وبين أن الدار الآخـرة للخالي عن الإرادتين جميعاً، وقـال عـز وجـل: (من كان يريد الحياة الـدنيا وزينتهـا نـوف إليهم أعمـالهم فيها وهم فيها لا يبخسـون * أولئـك الـذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيهـا وباطـل مـا كـانوا يعملـون) [هـود:15_16] وهـذا أيضـاً متنـاول بعمومــه لحب الجــاه، فإنــه أعظم لــذة من لــذات الحياة الدنيا، وأكثر زينة من زينتها.

معنى الجاه وحقيقته:

اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا. ومعنى المــال ملك الأعيان المنتفع بها، ومعنى الجاه ملـك القلـوب المطلوب تعظيمها وطاعتها.

علاج حب الجاه:

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعـاة الخلـق، مشـغوفاً بـالتودد إليهم، والمـراءات لأجلهم، ولا يـزال في أقوالـه وأفعالـه ملتفتـاً إلى مـا يعظم منزلتـه عنـدهم، وذلـك أصـل الفسـاد، ويجـر ذلـك لا محالـة إلى التسـاهل في العبادات، وإلى اقتحام المحظورات.

فحب الجاه من المهلكات فيجب علاجه وإزالتـه عن القلب، ومن فهم الآخرة ...صغر الجاه من عينيه، إلا أن ذلك إنمـا يصـغر في عين من ينظـر إلى الآخـرة، كأنـه يشـاهدها، ويسـتحقر العاجلـة، ويكـون المـوت كالحاصـل بين يديـه،...ويتفكـر في الأخطـار الـتي يستهدف لها أرباب الجاه، فإن كل ذي جاه محسود، ومقصود بالإيـذاء، وخـائف على الـدوام على جاهـه، ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب.

العلاج لحب المدح:

اعلم أن أكثر الناس إنما هلكوا بخوف مذمة النـاس، وحب مدحهم، فصارت حركـاتهم كلهـا مواقفـة على ما يوافق رضا الناس رجاء المدح وخوف الذم وذلك من المهلكـات فيجب معالجتـه، وملاحظـة الأسـباب التي لأجلها يحب المدح.

فاستشعار الكمـال بسـبب قـول المـادح، فطريقتـك فيه أن ترجع إلى عقلك، وتقول لنفسك: هذه الصفة التي يمـدحك بهـا أنت متصـف بهـا أم لا؟ فـإن كنت

متصفاً بها، فهي إما صفة تستحق بها المدح، كـالعلم والورع، وإما صفة لا تستحق المدح، كالثروة والجـاه والأعــراض الدنيويــة، فــإن كــانت من الأعــراض الدنيويـة، فـالفرح بهـا كـالفرح بنبـات الأرض، الـذي يصير على القـرب هشـيماً تـذروه الريـاح، وهـذا من قلة العقل. وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بهـا كالعلم والورع، فينبغي أن لا يفـرح بهـا لأن الخاتمـة غير معلومة... وخطر الخاتمة باق، ففي الخـوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكل ما في الـدنيا. ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمــة، فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى، لا بمدح المادح.

وإن كانت الصفة الـتي مـدحت بهـا أنت خـال عنهـا، ففرحـك بالمـدح غايـة الجنـون... فـإذا أثنـوا عليـك بالصلاح والورع ففرحت به، واللـه مطلـع على خبث باطنك، وغوائل سريرتك وأقـذار صـفاتك كـان ذلـك من غاية الجهـل. فـإذا المـادح صـدق فليكن فرحـك بصفتك التي هي من فضـل اللـه، وإن كـذب فينبغي أن يغمك ذلك ولا تفرح به.

وآفــة المــدح على الممــدوح عظيمــة، قــال بعض السلف: من فرح بمدح فقـد مكن الشـيطان من أن يدخل بطنه ومهما علم أن الأرزاق والآجال بيـد اللـه تعالى قل التفاتـه إلى مـدح الخلـق وذمهم، وسـقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه.

علاج كراهة الذم:

القـول الوجـيز فيـه أن من ذمـك لا يخلـو من ثلاثـة أحوال: إمـا أن يكـون صـادقاً فيمـا قـال، وقصـد بـه النصح والشفقة، وإما أن يكون صادقاً، ولكن قصـده الإيذاء والتعنت، وإما أن يكون كاذباً.

فإن كان صادقاً وقصـده النصـح فلا ينبغي أن تذمـه، أو تغضب عليـه، وتحقـد بسـببه، بـل ينبغي أن تتقلـد منته، فإن من أهدى إليـك عيوبـك فقـد أرشـدك إلى المهلـك حـتى تتقيـه فينبغي أن تفـرح بـه، وتشـتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها

وإن كان قصده التعنت، فـأنت قـد انتفعت بقولـه إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلاً به، وأذكـرك عيبـك إن كنت غافلاً عنه. وكل ذلك أسباب سـعادتك، وقـد استفدته منه، فاشتغل بطلب السعادة فقـد أتيح لـك أسبابها بسبب ما سمعته من المذمة.

وإما أن يفـتري عليـك بمـا أنت بـرئ منـه عنـد اللـه تعالى، فينبغي أن لا تكره ذلك، ولا تشتغل بذمه، بل تتفكر في ثلاثة أمور:

أحدها: أنك إن خلوت من ذلـك العيب، فلا تخلـو من أمثالـه وأشـباه، ومـا سـتره اللـه من عيوبـك أكـثر، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك.

الثـاني: أن ذلـك كفـارات لبقيـة مسـاويك، وذنوبـك، فكأنه رماك بعيب أنت بريء منه وطهرك من ذنـوب

أنت ملـوث بهـا، وكـلّ من اغتابـك فقـد أهـدى إليـك حسناته.

الثالث: أن المسكين قد جنى على دينه، حتى سقط من عين الله، وأهلك نفسه بافترائه وتعـرض لعقابـه الأليم، فلا ينبغي أن تغضـب عليـه مـع غضـب اللـه عليه، فتشمت به الشيطان وتقول: اللهم اهلكه، بـل تقول: اللهم أصلحه اللهم تب عليه

ذم الرياء:

الريـاء حـرام، والمـرائي عنـد اللـه ممقـوت، وقـد شهدت لذلك الآيات، والأخبار، والآثار.

أما الآيات: فقوله تعالى: (فويـل للمصـلين * الـذين هم عن صــلاتهم ســاهون * الــذين هم يــراءون) [الماعون:4-6] وقوله عز وجـل: (والـذين يمكـرون السيئات لهم عذاب شـديد ومكـر أولئـك هـو يبـور) [فاطر:10] قال مجاهد: أهل الرياء.

وقال تعالى: (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريـد منكم جـزاءً ولا شـكوراً) [الإنسـان:9] فمـدح المخلصـين بنفي كل إرادة سوى وجه الله، والرياء ضـده. وقـال تعـالى: (فمن كـان يرجـو لقـاء ربـه فليعمـل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربـه أحـداً) [الكهـف:110] نــزل ذلــك فيمن يطلب الأجــر والحمــد بعباداتــه، وأعماله.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من راءى، راءى الله به، ومن سمع، سمع الله به.) وقال عليه الصلاة والسلام: (إن أخوف ما أخوف عليكم الشرك الأصغر) قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: (الرياء) وقال صلى الله عليه وسلم: (يقول الله عز وجل: من عمل لي عملاً، أشرك فيه غيري، فهو له كله، وأنا برئ، وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك.) ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يطأطئ رقبته، فقال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب

وقال علي رضي الله عنه: للمرائي علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أثني عليه، وينقص إذا ذم.

حقيقة الرياء:

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية، والسمعة من السماع، وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير. فحد الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله.

دواء الرياء:

الرياء محبط للأعمال، وسبب للمقت عند الله تعالى، ومن كبائر المهلكات، وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته، ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق.

وفي علاجه مقامان: أحدهما: قلع عروقه وأصوله، والثاني: دفع ما يخطر منه في الحال المقام الأول: في قلع عروقه واستئصال أصوله، وأصله حب المنزلة والجاه...فليس يخفى أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له، ونافع لذيذ، إما في الحال وإما في المآل، فإن علم أنه لذيذ في الحال ولكنه ضار في المآل سهل عليه قطع الرغبة عنه. كمن يعلم أن العسل لذيذ، ولكن إذا بان له أن فيه سماً أعرض عنه، كذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من المضرة. ومهما عرف العبد مضرة الرياء، وما يفوته من صلاح قلبه، وما يحرم عنه في الحال من التوفيق، وفي الآخرة من المنزلة عند الله، وما يتعرض له من العقاب العظيم، والمقت الشديد، والخزي الظاهر. فمهما تفكر العبد في هذا الخزي وقابل ما يحصل من العباد والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة، وما يحبط من ثواب الأعمال،....هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهمّ بسبب ملاحظة قلوب الخلق، فإن رضا الناس غاية لا تدرك، فكل ما يرضي به فريق يسخط به فريق، ورضا بعضهم في سخط بعضهم، ومن طلب رضاهم في سخط الله، سخط الله عليه، وأسخطهم أيضاً عليه، ثم أي غرض له في مدحهم، وإيثار ذم الله لأجل مدحهم؟ ولا يزيده مدحهم رزقاً ولا أجلاً، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته، وهو يوم القيامة.

فإذا تقرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها، فترت رغبته وأقبل على اللـه قلبـه، فـإن العاقـل لا يـرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه.

وأمـا الـدواء العملي: فهـو أن يعـود نفسـه إخفـاء العبادات، وإغلاق الأبواب دونهـا، كمـا تغلـق الأبـواب دون الفواحش، حتى يقنع قلبـه بعلم اللـه، واطلاعـه على عبادتـه، ولا تنازعـه النفس إلى طلب علم غـير الله به.

المقام الثاني: في دفـع العـارض منـه أثنـاء العبـادة، فإن من جاهد نفسه وقلـع مغـارس الريـاء من قلبـه بالقناعة، وقطع الطمع، واستحقر مـدح المخلـوقين، وذمهم، فالشيطان لا يتركه في أثنـاء العبـادات، بـل يعارضه بخطرات الرياء، فلا بد وأن يتشمر لـدفع مـا يعرض من خاطر الرياء...فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم دفـع ذلـك بـأن قـال: مالـك وللخلق علموا، أو لم يعلموا، والله عالم بحالك فـأي فائدة في علم غـيره؟ فـإن هـاجت الرغبـة إلى لـذة الحمـد، ذكـر مـا رسـخ في قلبـه من قبـل من آفـة الرياء، وتعرضه للمقت عند الله في القيامة، وخيبتـه في أحوج أوقاته إلى أعماله.

الرخصة في قصد إظهار الطاعات:

اعلم أن في الأسرار للأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الريـاء، وفي الإظهـار فائـدة الاقتـداء، وتـرغيب النـاس في الخـير ولكن فيـه آفـة الريـاء، ولكن في

الإظهار فائدة، ولـذلك أثـنى اللـه تعـالى على السـر والعلانية، فقال: (إن تبدوا الصدقات فنعمـا هي وإن تخفوهـا وتؤتوهـا الفقـراء فهـو خـير لكم) [البقـرة: 271] والإظهار: قسمان.

القسم الأول: إظهار نفس العمل كالصدقة في الملأ لترغيب الناس فيهـا، كمـا روى عن الأنصـاري الـذي جاء بالصرة، فتتابع الناس بالعطيـة لمـا رأوه، فقـال عليه الصلاة والسلام: (من سن سنة حسـنة فعُمـل بها، كان له أجرها، وأجر من تبعه.)

القسـم الثـاني: أن يتحـدث بمـا فعلـه بعـد الفـراغ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسـه، والخطـر في هـذا أشـدّ لأن مؤنـة النطـق خفيفـة على اللسـان، وقـد تجرى في الحكاية زيادة

ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات:

اعلم أن من النـاس من يـترك العمـل خوفـاً من أن يكـــون مرائيـــاً بـــه، وذلـــك غلـــط وموافقـــة للشيطان،...لأن الشيطان يدعوك إلى تـرك العمـل، فإذا لم تجب واشتغلت فيدعوك إلى الرياء، فـإذا لم تجب ودفعت، بقي يقــول لــك: هــذا العمــل ليس بخالص، وأنت مراء وتعبك ضائع، فأي فائدة لـك في عمل لا إخلاص فيه؟ حـتى يحملـك بـذلك على تـرك العمل، فإذا تركته فقد حصّلت غرضه.

ومن هذا القبيل أن يترك العمل خوفاً من النـاس أن يقولوا: إنه مراء فيعصون اللـه بـه. فهـذا من مكايـد الشيطان، لأنه أولاً أساء الظن بالمسلمين، وما كـان من حقـه أن يظن بهم ذلـك. ثم إن كـان فلا يضـره قولهم، ويفوته ثواب العبادة.

وتـرك العمـل خوفـاً من قـولهم: إنـه مـراء هـو عين الرياء، فلولا حبه لمحمدتهم وخوفه من ذمهم، فماله ولقولهم قـالوا: مـراء، أو قـالوا: إنـه مخلص؟ فهـذه كلها من مكايد الشيطان على العباد الجهال ولا نجاة منه إلا بأن تلزم قلبك معرفـة آفـة الريـاء، وهـو أنـه ضـرر في الآخـرة، ولا نفـع فيـه في الـدنيا، ليلـزم الكراهة والإباء قلبك، وتستمر مـع ذلـك على العمـل ولا تبالي، وترك العمل لأجل ذلك يجـرّ إلى البطالـة، وترك الخيرات، فما دمت تجد باعثاً دينياً على العمل فلا تترك العمل، وجاهد خـاطر الريـاء، وألـزم قلبـك الحياء من الله إذا دعتك نفسـك أن تسـتبدل بحمـده حمد المخلوقين، وهو مطلـع على قلبـك، ولـو اطلـع الخلق على قلبك وأنت تريد حمدهم لمقتوك، بل إن قــدرت على أن تزيــد في العمــل حيــاء من ربــك فافعل.

فـإن قـال لـك الشـيطان: أنت مـراء، فـاعلم كذبـه وخدعـه بمـا تصـادف في قلبـك من كراهـة الريـاء وإبائه، وخوفك منه، وحيائك من الله تعالى.

كتاب ذم الكبر والعجب

بيان ذم الكبر:

لقد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه، وذم كل جبار متكبر، فقال تعالى: (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) [الأعراف: 146] وقال الله عز وجل (كذلك يطبع الله على كل قلبِ متكبرٍ جبارٍ) [غافر:35] وقال تعالى: (واستفتحوا وخاب كل جبارٍ عنيدٍ) [إبراهيم:15] وقال تعالى: (إنه لا يحب المستكبرين) [النحل: 23] وقال تعالى: (لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً) [الفرقان:21] وقال تعالى: (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) [غافر:60]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه حبة من خردل من كبر.) وقال عليه الصلاة والسلام: (يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحد منها، ألقيته في جهنم، ولا أبالي.) وقال صلى الله عليه وسلم: (تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وعجزتهم؟ فقال الله للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها.)

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لا يحقرن أحداً من المسلمين، فإن صغير المسلمين عند الله كبير.

وقـال الحسـن: العجب من ابن آدم، يغسـل الخـراء بيـده كـل يـوم مـرة، أو مـرتين، ثم يعـارض جبـار السماوات.

بيان فضيلة التواضع:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما زاد اللـه عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله.)

قال أبو بكر الصديق رضي اللـه عنـه: وجـدنا الكـرم في التقـــوى، والغـــنى في اليقين، والشـــرف في التواضع.

وقالت عائشـة رضـي اللـه عنهـا: إنكم لتغفلـون عن أفضل العبادات، التواضع.

وقال يوسف بن أسباط: يجرى قليل الورع من كثـير العمل، ويجزي قليل التواضع من كثير الاجتهاد.

وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع، ما هو؟ فقـال: أن تخضع للحق، وتنقـاد لـه، ولـو سـمعته من صـبي قبلته، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته.

وقال قتادة: من أعطى مالاً أو جمالاً أو ثياباً أو علماً، ثم لم يتواضع فيه، كان عليه وبالاً يوم القيامة.

وقـال كعب: مـا أنعم اللـه على عبـد من نعمـة في الدنيا، فشكرها لله، وتواضع بها للـه إلا أعطـاه اللـه نفعها في الدنيا.

وقـال الحسـن: أتـدرون مـا التواضـع؟ التواضـع أن تخرج من منزلك، ولا تلقى مسلماً إلا رأيت له عليك فضلاً.

وقال زياد النميرى: الزاهـد بغـير تواضـع، كالشـجرة التي لا تثمر.

وقيل لعبدالملك بن مروان: أي الرجال أفضل؟ قال: من تواضــع على قــدرة، وزهــد عن رغبــة، وتــرك النصرة عن قوة.

يقال: أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه.

بيان حقيقة الكبر وآفته:

الكبر ينقسم إلى باطن وظـاهر، فالبـاطن هـو خُلـق في النفس، والظاهر هو أعمال تصدر عن الخــوارج. واسم الكبر بالخُلق أحق، وأما الأعمال فإنها ثمــرات لذلك الخلق.

والكـبر يسـتدعي: متكـبراً عليـه، ومتكـبر بـه، وبـه ينفصـل الكـبر عن العجب، فـإن العجب لا يسـتدعي غـير المعجب، بـل لـو لم يخلـق الإنسـان إلا وحـده تصور أن يكون معجباً، ولا يتصور أن يكون متكبراً إلا أن يكون معه غيره، وهو يرى نفسه فوق ذلك الغـير في صفات الكمال.

بيان ما به التكبر:

اعلم أنــه لا يتكــبر إلا مــتى اســتعظم نفســه، ولا يســتعظمها إلا وهــو يعتقــد لهــا صــفة من صــفات الكمال، وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيــوي فالديني: العلم، والعمل والدنيوي: النسب، والجمال، والقوة، والمال، وكثرة الأنصار. فهذه سبعة أسباب:

الأول: العلم، فإن قلت: فما بال بعض النـاس يـزداد كبراً؟ فلذلك سببين:

أحدهما: أن يكون اشتغاله بمـا يسـمى علمـاً، وليس علماً حقيقاً، وإنما العلم الحقيقي ما يعرف بـه العبـد ربـه، ونفسـه، وهـذا يـورث الخشـية والتواضـع دون الكبر

السبب الثاني: أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة، ردئ النفس، سيء الأخلاق، فإنه لم يشـتغل أولاً بتهــذيب نفســه، وتزكيــة قلبــه، فبقي خــبيث الجوهر.

الثاني: العمـل والعبـادة، فهـو يـرى النـاس هـالكين، ويرى نفسه ناجياً، وهو الهالك تحقيقـاً، قـال رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: (إذا سـمعتم الرجـل يقول: هلك الناس، فهو أهلكهم) لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله، مغـتر باللـه، آمن من مكـــــره، غـــــير خـــــائف من ســـــطوته.

الثالث: التكبر بالحسب والنسب، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب، وإن كان أرفع منه عملاً وعلماً.

الرابع: التفاخر بالجمال، وذلك أكثر ما يجرى بين النساء.

الخامس: الكبر بالمال، فيستحقر الغني الفقير، ويتكبر عليه.

السادس: الكبر بالقوة، وشدة البطش، والتكبر به على أهل الضعف.

السابع: التكبر بالأتباع والأنصار والعشرة والأقارب.

بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له:

الكبر خلق باطن، وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهو ثمرة ونتيجة، والكبر الظاهر أسبابه ثلاثة: سبب في المُتكبر، وسبب في المتكبر عليه، وسبب فيما يتعلق بغيرهما، أما السبب الذي في المتكبر فهو: العجب، والذي يتعلق بالمتكبر عليه هو الحقد والحسد، والذي يتعلق يغيرهما هو: الرياء، فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة: العجب، والحقد، والحسد، والرياء.

أخلاق المتواضعين، ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر:

التكبر يظهر في شمائل الرجل: كصعر في وجهه ونظره شزراً، وفي أقواله، ويظهر في مشيته وتبختره، فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله، ومنهم من يتكبر في بعض:

فمنها: أن يحب قيام الناس له أو بين يديه، ومنها: أن يمشي معه غيره يمشي خلفه. ومنها: أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه، إلا أن يجلس بين يديه،

ومنها: أن لا يتعاطى بيده شغلاً في بيته، ومنها: أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته.

وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي صل الله عليه وسلم فينبغي أن يقتدي به، فما نقل من أحواله عليه الصلاة والسلام يجمع أخلاق المتواضعين.

بيان الطريق في معالجة الكبر، واكتساب التواضع:

الكبر من المهلكات، وفي معالجته مقامان:

المقام الأول: استئصال أصله وعلاجه علمي وعملي، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما

أما العلمي: فهو أن يعرف نفسه، ويعرف ربه تعالى، ويكفيه ذلك في إزالة الكبر، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه لا يليق به إلا التواضع، وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا لله، وأما معرفته نفسه فيكفيه أن يعرف معنى آية

واحدة في كتاب الله: (قتل الإنسان ما أكفره * من أي شــيء خلقــه * من نطفــة خلقــه فقــدره * ثم السـبيل يسـره * ثم أماتـه فـأقبره * ثم إذا شـاء أنشره) [عبس: 17_22] فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان، وإلى آخر أمره، وإلى وسطه، فلينظر الإنسان إلى ذلك، ليفهم معـنى هـذه الآيـة، أمـا أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم خلقه اللــه من أرذل الأشياء، فمن كان هذا بـدؤه، فمن أين لـه البطر، والكبرياء، والفخر؟

ثم سـلط عليـه في دوام وجـوده الأمـراض الهائلـة، والأسـقام العظيمــة، والآفــات المختلفــة، والطبــاع المتضـادة، لا يملـك لنفسـه نفعـاً ولا ضـراً، يشـتهي الشيء وربما يكون هلاكـه فيـه، لا يـأمن في لحظـة من ليله أو نهاره أن يسـلب سـمعه، وبصـره، وتفلج أعضاؤه، ويختلس عقلـه، ويختطـف روحـه، ويسـلب جميع مـا يهـواه في دنيـاه، فـأي شـيء أذل منـه لـو عرف نفسه، وأني يليق الكبر بـه لـولا جهلـه؟ فهـذه أوسط أحواله فليتأمله.

وأما آخره فهـو المـوت المشـار إليـه بقولـه تعـالى: (ثم أماتــه فــأقبره * ثم إذا شــاء أنشــره) [عبس: 17_22] ومعناه أنه يسلب روحه، فيعود جمـاداً كمـا كان أول مرة، لا يبقي إلا شكل أعضائه ولا حس فيه ولا حركـة، ثم يوضـع في الـتراب، ثم تبلى أعضـاؤه، ويأكل الدود أجزائه، فما لمن هذا حاله والتكبر؟

وأما العلاج العملي فهو التواضع لله بالفعل، ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين. من أحوال الصالحين، ومن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

المقام الثاني: فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة، فنذكر طريق العلاج:

الأول: النسب، فمن يعتريه الكبر من جهة النسب، فليداوي قلبه بمعرفة أمرين:

أحدهما: أن هذا جهل، من حيث أنه تعزز بكمال غيره. فالمتكبر بالنسب إن كان خسيساً قي صفات ذاته، فمن أين يجبر خسته بكمال غيره؟

الثاني: أن يعرف نسبه الحقيقي، فيعرف أباه وجده، فإن أباه القريب نطفة قذرة، وجده البعيد تراب، وقد عرفه الله تعالى نسبه، فقال: (الذي أحسن كل شيءٍ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طينٍ * ثم جعل نسله من سلالةٍ من ماءٍ مهينٍ) [السجدة:7-8]

السبب الثاني: التكبر بالجمال، ودواؤه أن ينظر في باطنه نظر العقلاء، ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال، فإنه وكل به الأقذار في جميع أجزائه.

السبب الثالث: التكبر بالقوة والأيدي، ويمنعه من ذلك أن يعلم أنه...لو توجع عرق واحد في يده، لصار أعجز من كل عاجز، وأذل من كل ذليل.

السبب الرابع والخامس: الغني وكثرة المال، وفي معناه كثرة الاتباع والانصار، وكل ذات تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان...وهذا أقبح أنواع التكبر...فالتفاخر به غاية الجهل، وكل ما ليس إليك فليس لك، بل إلى واهبه، إن أبقاه لك، وإن استرجعه زال عنك، وما أنت إلا عبد مملوك، لا تقدر على شيء، ومن عرف ذلك لا بد أن يزول كبره.

السبب السادس: الكبر بالعلم، وهو أعظم الآفات، وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدة شديدة، وجهد جهيد، لأن قدر العلم عظيم عند الله، عظيم عند الناس، ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين: أحدهما: أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم أكد، وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشره من العالم، فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش، فلا ينبغي أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم، وقد كان بعضهم يقول: يا ليتني لم تلدني أمي، خوفاً من خطر العاقبة، ومهما أطال فكره في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كبره.

الأمر الثاني: أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله

بغيضاً، وقد أحب اللـه منـه أن يتواضـع، وهـذا يزيـل التكبرِ عن قلبه.

السبب السابع: التكبرِ بالورع، والعبادة، وذلـك أيضـاً فتنــة عظيمــة على العبــاد، وسـبيله أن يلـزم قلبــه التواضـع لسـائر العبـاد، وهـو أن يعلم أن من يتقـدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفمـا كـان، لمـا عرفه من فضيلة العلم، وقد قال تعـالى: (قـل هـل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) [الزمر:9] قال وهب بن منبه: ما تمّ عقل عبد حتى يكـون فيـه عشر خصال، فعد تسعة، حـتى بلـغ العاشـر، فقـال: العاشرة! ومـا العاشـرة! بهـا شـاد مجـده، وبهـا علا ذكره، أن يرى الناس كلهم خيراً منه.

غاية الرياضة في خلق التواضع:

اعلم أن هــذا الخلــق كســائر الأخلاق، لــه طرفــان وواسـطة، فطرفـه الـذي يميـل إلى الزيـادة يسـمى تكبراً، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى مذلة، والوسط يسمى تواضـعاً، والمحمـود أن يتواضـع من غــير مذلــة، فــإن كلا طــرفي الأمــور ذميم، وأحب الأمـور إلى اللـه تعـالى أوسـاطها، فمن يتقـدم على أمثاله فهو متكبر، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع.

بيان ذم العجب وآفاته:

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى، وسـنة رسـوله صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال اللـه تعـالى: (ويــوم حــنين إذ أعجبتكم كــثرتكم فلم تغن عنكم

شيئاً) [التوبة:25] ذكر ذلك في معرض الإنكار، وقال عز وجل: (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) [الحشر:2] فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم، وقال تعالى: (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) [الكهف:104] وهذا أيضاً يرجع إلى العجب بالعمل، وقد يُعجب الإنسان بالعمل وهو مخطئ فيه، كما يعجب بعملٍ هو مُصيب فيه.

وقال ابن مسعود: الهلاك في اثنتين: القنوط، والعجب. وقال مطرف: لأن أبيت نائماً، وأصبح نادماً، أحبّ إليّ من أبيت قائماً، وأصبح معجباً

آفة العجب:

آفات العجب كثيرة فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى. هذا مع العباد، وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، وما يتذكره فيستصغره، ولا يستعظمه، فلا يجتهد في تداركه، وتلافيه، وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها، ويتبجح بها، ويمنّ على الله بفعلها، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها، ثم إذا عجب بها عمي عن آفاتها. والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه. ويخرجه العجب أن يثني على نفسه يزكيها. وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة، ومن السؤال، فيستبد بنفسه ويستنكف من سؤال

من هو أعلم منه، وربما يعجب بـالرأي الخطـأ، ومن آفاته: أن يفتر عن السعي لظنه أنه قد استغنى.

بيان علاج العجب على الجملة:

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده، وعلة العجب الجهـل المحض، فعلاجـه المعرفـة المضـادة لـذلك الجهـل. فنقـول: الـورع، والتقـوى، والعبـادة، والعمل، الذي بـه يعجب...نعمـة من اللـه عليـه، من غير حق سبق له، ومن غير وسيلة يدلي بها، فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله، إذ أفــاض عليـه مـا لا يسـتحق، وآثـره بـه على غـيره من غـير سابقة ووسيلة.

بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه:

اعلم أن...ما به العجب ثمانية أقسام:

الأول: أن يعجب ببدنه في جمالـه، وهيئتـه، وصـحته، وقوته، فيلتفت إلى جمال نفسه، وينسـي أنـه نعمـة من الله تعالى، وهـو بعرضـة الـزوال في كـل حـال. وعلاجه التفكر في أقذار باطنه، وفي أول أمره وفي آخره، وفي الوجوه الجميلـة والأبـدان الناعمـة كيـف تمــزقت في الــتراب، وأنتنت في القبــور، حــتى استقذرتها الطباع.

الثـاني: العجب بالعقـل والكياسـة والتفطن لـدقائق الأمور، وثمرتـه الاسـتبداد بـالرأي وتـرك المشـورة، واستجهال الناس المخالفين له، ولرأيـه، وعلاجـه أن

يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل، ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس، ويجن بحيث يضحك منه! فلا يأمن أن يسلبه عقله إن أُعجب به ولم يقم بشكره وليستقصر عقله وعلمه، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلاً وإن اتسع علمه، وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه، وأن يتهم عقله وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم، فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري، فإن القاصر العقل لا يعلم قصور عقله، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه.

الثالث: البطش والقوة. كما حكى عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم (من أشد منّا قوةً) [فصلت:15] وعلاجه...أن يعلم أن حمّى يوم تضعف قوته! وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه.

الرابع: العجب بالنسب الشريف، كعجب الهاشمية، وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم، وظن أنه ملحق بهم فقد جهل. وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب، ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب فليتشرف بما شرفوا به.

الخامس: العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين، والعلم. وهذا غاية الجهل، وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم، وما جرى لهم من الظلم

على عبـــاد اللـــه، والفســـاد في دين اللـــه، وأنهم الممقوتــون عنــد اللــه....فحــق أولاد الظلمــة إن عصــمهم اللــه من ظلمهم أن يشــكروا اللــه على سلامة دينهم، ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين.

الســادس: العجب بكــثرة العــدد من الأولاد والخــدم والغلمــان والعشــيرة والأقــارب، كمــا قــال الكفــار: (نحن أكــثر أمــوالاً وأولاداً) [ســبأ:35] وعلاجــه أن يتفكر في ضعفه، وضعفهم، وأن كلهم عبيــد عجــزة، لا يملكون لأنفسهم ضراً، ولا نفعاً.

السابع: العجب بالمال، كمــا قــال تعــالى إخبــاراً عن صاحب الجنتين إذ قــال: (أنــا أكــثر منــك مــالاً وأعــزُّ نفــراً) [الكهــف:34] وعلاجــه أن يتفكــر في آفــات المـــال، وكـــثرة حقوقـــه، وعظيم غوائلـــه، وإلى أن المال غاد ورائح، ولا أصل له.

الثامن: العجب بــالرأي الخطــأ، قــال تعــالى: (أفمن زُين له سوء عمله فرآه حســناً) [فــاطر:8] وعلاجــه أشد من علاج غيره، لأن صاحب الرأي الخطأ جاهــل بخطئه، ولو عرفه لتركــه، وإنمــا علاجــه بالجملــة أن يكون متهماً لرأيه أبداً، لا يغتر به.

كتاب ذم الغرور

بيان ذم الغرور وحقيقته:

اعلم أن قوله تعالى: (فلا تغــرنكم الحيــاة الــدنيا ولا يغــرنكم باللــه الغــرور) [لقمــان:33] وقولــه تعــالى:

(ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني) [الحديد:14] كاف في ذم الغرور.

والغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع، عن شبة وخدعة من الشيطان، فمن اعتقد أنه على خير، إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور وأكثر الناس مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم، واختلفت درجاتهم، حتى كان غرور بعضهم أشد من بعض وأشدها غرور الكفار، وغرور العصاة والفساق

غرور العصاة:

غرور العصاة من المؤمنين بقولهم: إن الله كريم، وإنا نرجو عفوه، واتكالهم على ذلك، وإهمالهم الأعمال، وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء، وظنهم أن الرجاء محمود في الدين، وأن نعمة الله واسعة.

فإن قلت: فأين مظنة الرجاء، وموضعه المحمود؟ فاعلم أنه محمود في موضعين:

أحدهما: في حق العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة، فقال له الشيطان: وأني تقبل توبتك، فيقنط من رحمة الله تعالى، فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء، ويتذكر قوله تعالى: (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) [الزمر:53] وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده، وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب، قال الله تعالى: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على

أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم) [الزمر:53_54] أمرهم بالإنابة.

وقال تعالى: (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) [طه:82] فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور.

الثاني: أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال، ويقتصر على الفرائض، فيرجي نفسه نعيم الله تعالى، وما وعد به الصالحين، حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة، فيقبل على الفضائل، ويتذكر قوله تعالى: (قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون) [المؤمنون:1_2] إلى قوله (أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) [المؤمنون:9_10] فالرجاء الأول: يقمع القنوط المانع من التوبة، والرجاء الثاني يقمع الفتور المانع من النشاط.

فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان على العمل، فما لا يبعث على العمل، فهو تمن وغرور، ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم، وسبب إقبالهم على الدنيا، وسبب إعراضهم عن الله تعالى، وإهمالهم السعي للآخرة، فذلك غرور....وكان الناس في الاعصار الأول يواظبون على العبادات، ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، يخافون على أنفسهم، وهم طول الليل

والنهار في طاعة الله، يبالغون في التقـوى، والحـذر من الشبهات والشهوات، ويبكـون على أنفسـهم في الخلوات.

فهذه أمثلة الغرور بالله...ويقـرب منـه طوائـف لهم طاعـــات ومعـــاص، إلا أن معاصـــيهم أكـــثر، وهم يتوقعـــون المغفـــرة، ويظنـــون أنهم تـــترجح كفـــة حسناتهم، مع أن مـا في كفـة السـيئات أكـثر، وهـذا غاية الجهل، فترى الواحـد يتصـدق بـدراهم معـدودة من الحلال، ويكون ما يتنـاول من أمـوال المسـلمين والشــبهات أضــعافه،...ومنهم من يظن أن طاعاتــه أكثر من معاصيه، لأنـه لا يحاسـب نفسـه، ولا يتفقـد معاصيه، كالذي يستغفرِ اللـه بلسـانه مائـة مـرة، ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم طـول النهـار من غير حصر

أصناف المغترين:

الصنف الأول: أهل العلم والمغترين منهم فرق:

ففرقة: أحكموا العلوم الشرعية، والعقلية، وتعمقــوا فيها، واشتغلوا بها، وأهملوا تفقـد الجـوارح وحفظهـا عن المعاصي، وإلزامهـا الطاعـات، واغـتروا بعلمهم وظنــوا أنهم عنـد اللــه بمكـان،...ولـو نظـروا بعين البصـيرة علمـوا أن علم...معرفـة الحلال والحـرام، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة، وكيفية علاجها، والفرار منها، علوم لا تراد إلا للعمل...ولكـل علم يراد للعمل، فلا قيمة له دون العمل.

وفرقة أخرى: أحكموا العلم والعمـل، فواظبـوا على الطاعـات الظـاهرة، وتركـوا المعاصـي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة عند اللـه، من الكبر، والحسد، والرياء، وطلب الرياسـة، وإرادة السوء للأقران والنظراء، وطلب الشـهرة في العبـاد والبلاد. وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم، فهو مكب عليها غير متحرز منها. فهؤلاء زينوا ظـواهرهم وأهملـوا بـواطنهم، ونسـوا قولـه صـلى اللـه عليـه وسلم: (إن لا ينظر إلى صـوركم، ولا إلى أمـوالكم، وإنمـا ينظـر إلى قلـوبكم وأعمـالكم.) فتعهـدوا الأعمال، ولم يتعهدوا القلوب _ والقلب هو الأصـل _ إذ لا ينجـو إلا من أتى اللـه بقلب سـليم. ومغـارس المعاصـي هي الأخلاق الذميمـة في القلب، فمن لا يطهر القلب منها لا تتم له الطاعات الظاهرة إلا مـع الآفات الكثيرة.

وفرقـة أخـرى: علمـوا أن هـذه الأخلاق الباطنـة مذمومة من جهة الشـرع، إلا أنهم لعجبهم بأنفسـهم يظنـون أنهم منفكـون عنهـا...ثم إذا ظهـر عليهم مخايل الكبر والرياسة قالوا: مـا هـذا كـبر، إنمـا هـو إظهـار شـرف العلم ونصـرة دين اللـه....ونسـي مـا روي عن الصحابة من التواضع والقناعة.

الصنف الثـاني: أربـاب العبـادة والعلم والمغـرورون منهم فرق:

فمنهم فرقة: أهملوا الفـرائض، واشـتغلوا بالفضـائل والنوافل، وربما تعمقوا في الفضـائل، حـتى خرجـوا

إلى العدوان والسرف، كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء، فيبالغ فيه، ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع...وقد يطول الأمر حتى يضيع الصلاة، ويخرجها عن وقتها، وإن لم يخرجها أيضاً عن وقتها فهو مغرور لما فاته من فضيلة أول الوقت، وإن لم يفته فهو مغرور لإسرافه في الماء، وإن لم يسرف فهو مغرور لتضيعيه العمر الذي هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه.

وفرقة أخرى: غلب عليها الوسوسة في نية الصلاة، فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة، بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة، ويخرج الصلاة عن الوقت، وإن تم تكبيره فيكون في قلبه تردد قي صحة نيته، وقد يوسوسون في التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه.

وفرقة أخرى: تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة، وسائر الأذكار من مخارجها، فلا يزال يحتاط في التشديدات وتصحيح مخارج الحروف ذاهلاً عن معنى القرآن، والاتعاظ به، وهذا من أقبح أنواع الغرور.

وفرقة أخرى: اغتروا بقراءة القرآن، فيهذونه هذاً، وربما ختموا في اليوم والليلة مرة، ولسان أحدهم يجري به، وقلبه يتردد في أودية الأماني، إذ لا يتفكر في معاني القرآن لينزجر بزواجره، ويتعظ بمواعظه، ويقف عند أوامره ونواهيه.

وفرقة أخرى: اغتروا بالصوم، وربما صاموا الدهر، وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة، وبطونهم عن الحرام عند الإفطار، وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير، فيهمل الفرائض، ويطلب النفل، ثم لا يقوم بحقه، وذلك غاية الغرور.

وفرقة أخرى: اغتروا بالحج، فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم، وقضاء الديون، واسترضاء الوالدين، وطلب الزاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد حجة الإسلام، ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض، ولا يحذرون في الطريق من الرفث والخصام....ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق، وذميم الصفات.

وفرقة أخرى: أخذت في طريق الحسبة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ينكر على الناس، ويأمرهم بالخير، وينسى نفسه.

الصنف الثالث: أرباب الأموال، والمغترون منهم فرق:

ففرقة منهم: يحرصون على بناء المساجد...ويكتبون أساميهم...ليتخلد ذكرهم، ويبقى بعد الموت أثرهم، وقد اغتروا، وهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق، ولو كلف واحد منهم أن ينفق ديناراً، ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه لشق عليه ذلك، ولم تسمح به نفسه.

وفرقة أخرى: يحرصون على بناء المساجد والمدارس والقناطر، وهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم، فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها.

وفرقة أخرى: ربما اكتسبت المال من الحلال، وأنفقت في المساجد...وزخرفتها وتزينها بالنقوش التي هي منهي عنها، وشاغلة قلوب المصلين، ومختطفة أبصارهم،

وفرقة أخرى: ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين، ويطلبون به المحافل الجامعة، ويكرهون التصدق في السر.

وفرقة أخرى: غلبهم على البخل، فلا تسمح أنفسهم إلا بأداء الزكاة فقط، ثم إنهم يخرجون من المال الخبيث الرديء الذين يرغبون عنه.

الصنف الرابع: المتصوفة، وما أغلب الغرور عليهم، وهم فرق كثيرة

ففرقة منهم: اغتروا بالزي والهيئة والمنطق....ولم يتعبوا أنفسهم في مراقبة القلب، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الجلية والخفية...بل يتكالبون على الحرام، والشبهات، وأموال السلاطين، ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة، ويتحاسدون على النقير والقطمير، ويمزق بعضهم

أعـراض بعض مهمـا خالفـه في شـيء من غرضـه. وهؤلاء غرورهم ظاهر.

وفرقة أخرى: ادعت علم المعرفـة...فهـو ينظـر إلى الفقهـاء والمفسـرين والمحـدثين وأصـناف العلمـاء بعين الإزراء، فضـلاً عن العـوام....ويسـتحقر بـذلك جميع العباد والعلمـاء...ويـدعي لنفسـه أنـه الواصـل إلى الحـق، وأنـه من المقـربين، وهـو عنـد اللـه من الفجار المنافقين...لم يحكم علماً، ولم يهـذب خلقـاً، ولم يرتب عملاً، ولم يراقب قلباً، سوى اتباع الهوى، وتلقف الهذيان وحفظه.

وفرقـة أخـرى: وقعت في الاباحـة، وطـووا بسـاط الشـــرع، ورفضـــوا الأحكـــام، وســـووا بين الحلال والحرام. فبعضهم يزعم أن اللـه مسـتغن عن عملي فلم أتعب نفسي؟ وبعضهم يقول: الأعمال بالجوارح لا وزن لها، وإنما النظر إلى القلـوب، وقلوبنـا والهـة بحب الله، واصلة إلى معرفـة اللـه...ويزعمـون أنهم ترقوا عن رتبة العوام...وكل ذلك أغاليـط ووسـاوس يخدعهم الشيطان بها.

وفرقــة أخــرى: ادعــوا حســن الخلــق، والتواضــع، والسماحة، واتخذوا ذلك للرياسة، وجمع المال، فهم يظهـرون التواضـع وغرضـهم الارتفـاع، ويظهـرون الإرفـاق وغرضـهم الاسـتتباع، ثم إنهم يجمعـون من الحرام، والشبهات، وينفقون ليكثر أتباعهم....وباعث جميعهم الرياء والسمعة.

علاج الغرور:

فإن قلت: فبم ينجـو العبـد من الغـرور؟ فـاعلم أنـه ينجـو منـه...أن يعـرف أربعـة أمـور: يعـرف نفسـه، ويعرف ربـه، ويعـرف الـدنيا، ويعـرف الآخـرة...فـإذا عـرف ذلـك...ثـار في قلبـه بمعرفـة اللـه حب اللـه، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبـة فيهـا، وبمعرفـة الـدنيا الرغبة عنها، ويصير أهم أمـوره مـا يوصـله إلى اللـه تعـالى، وينفعـه في الآخـرة، وإذا غلبت هـذه الإرادة على قلبه صحت نيته في الأمـور كلهـا، وانـدفع عنـه كل غرور منشؤه النزوع إلى الـدنيا والجـاه والمـال، فإن ذلك هـو المفسـد للنيـة، ومـا دامت الـدنيا أحب إليه من الآخرة، وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور.

فــإذا غلب حب اللــه على قلبــه بمعرفتــه باللــه، وبنفســه.....فيحتــاج إلى...معرفــة كيفيــة سـلوك الطريـق إلى اللـه، والعلم بمـا يقربـه من اللـه ومـا يبعده عنه، والعلم بآفات الطريق وعقباتـه وغوائلـه، فيعـرف من العبـادات شـروطها فيراعيهـا، وآفاتهـا فيتقيها، ويعرف أسـرار المعـايش، ومـا هـو مضـطر إليـه فيأخـذه بـأدب الشـرع، ومـا هـو مسـتغن عنـه فيعرض عنه، وأن يعلم جميع العقبات المانعـة، فـإن المانع من الله الصفات المذمومة في الخلق، فيعلم المذموم وطرق علاجه، ويعرف الصفات المحمـودة، والـتي لا بـد وأن توضـع خلفـاً عن المذمومـة بعـد محوهـا، فـإذا أحـاط بجميـع ذلـك أمكنـه الحـذر من

الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور، وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على القلب، ويسقط حب الدنيا منه، حتى تقوى به الإرادة، وتصح به النية، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها.

فنسأل الله تعالى العون والتوفيق، وحسن الخاتمة، فإن الأمور بخواتيمها.

الربع الرابع: ربع المنجيات

كتاب التوبة

وجوب التوبة وفضلها:

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبارٍ والآيات، قال الله تعالى: (وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون) [النور:31] وهذا أمر على العموم، وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً) [التحريم:8] ومعنى النصوح: الخالص لله تعالى، ويدل على فضل التوبة قوله تعالى: (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) [البقرة:222] وقال عليه الصلاة والسلام: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)

والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى، والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها.

ومن معناها: ترك المعاصي في الحال، والعـزم على تركها في الاستقبال، وتدارك مـا سـبق من التقصـير في ســابق الأحــوال، وأمــا التنــدم على مــا ســبق فواجب، وهو روح التوبة.

وجوب التوبة على الفور:

أما وجوبها على الفـور فلا يسـتراب فيـه، إذ معرفـة كــون المعاصــي مهلكــات من نفس الإيمــان، وهــو واجب على الفور.

المعاصي للإيمان كالمأكولات المضرة للأبـدان، فـإذا كـان الخـائف من الهلاك في هـذه الـدنيا المنقضـية يجب عليه ترك السموم، ومـا يضـره من المـأكولات في كل حال وعلى الفـور، فالخـائف من هلاك الأبـد أولى بــأن يجب عليــه ذلــك،...فالبــدار البــدار إلى التوبة، قبل أن تعمل سـموم الـذنوب بـروح الإيمـان عملاً يجاوز الأمـر فيـه الأطبـاء واختيـارهم، ولا ينفـع بعده الاحتمـاء، فلا ينجح بعـد ذلـك نصـح الناصـحين، ووعظ الواعظين.

أقسام الذنوب:

تنحصر مثارات الذنوب في أربع صفات:

الأول: الصفات الربوبية، مثل الكـبر، والفخــر، وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء

الثانيـة: الصـفة الشـيطانية، ومنهـا يتشـعب الحسـد والبغي والمكـر والخـداع والغش والنفـاق والـدعوة إلى البدع والضلال والأمر بالفساد.

الثالثة: الصفة البهيمية، ومنه يتشعب الزنـا واللـواط والسرقة وأكل مال الأيتام

الرابعـة: الصـفة السـبعية، ومنهـا يتشـعب الغضـب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلال الأموال.

وهـذه الصـفات لهـا تـدرج في الفطـرة، فالصـفة البهيميـة هي الـتي تغلب أولاً، ثم تتلوهـا الصـفة السـبعية ثانيـاً، ثم إذا اجتمعـا اسـتعملا العقـل في الخداع والمكر والحيلة، وهي الصـفة الشـيطانية، ثم بـالآخرة تغلب الصـفات الربوبيـة....فهـذه أمهـات الذنوب ومنابعها، ثم تنفجر الذنوب من هـذه المنـابع على الجوارح.

قسـمة ثانيـة: اعلم أن الـذنوب تنقسـم إلى مـا بين العبد وبين الله تعالى، وإلى ما يتعلق بحقوق العبـاد.
قسـمة ثالثـة: اعلم أن الـذنوب تنقسـم إلى صـغائر وكبائر.

ما تعظم به الصغائر من الذنوب:

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب:

منها: الإصرار والمواظبة، ولذلك قيل: لا صغيرة مـع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار.

ومنها: السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها، وكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة، وعظم أثرها في تسويد القلب، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته إياه.

[137]

ومنها: أن يستصغر الذنب، فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه، وكراهيته له. وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به، واستصغاره يصدر عن الألف به، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب.

وقد جاء في الخبر: (المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه، يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مرّ على أنفه فأطاره.) وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله، فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة.

ومنها: أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه، وإمهاله إياه، ولا يدري أنه إنما يمهل مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً، فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله.

ومنها: أن يكون المُذنب عالماً يقتدى به، فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه.

ومنها: أن يأتي الذنب ويظهره، بأن يذكره بعد إتيانه، أو يأتيه في مشهد غيره، فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سدله عليه، وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه، أو أشهده فعله، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت به، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له، صارت الجناية رابعة، وتفاحش الأمر، وفي الخبر: (كل الناس معافى، إلا المجاهرين، يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه، فيصبح يكشف ستر الله، ويتحدث بذنبه.)

قال بعضهم: لا تذنب، فإن كان ولا بد، فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين.

وقال بعض السلف: ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية، ثم يهونها عليه.

فطوبى لمن إذا مات، ماتت ذنوبه معه.

دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار:

لا يقف على الدواء من لا يقف على الداء....ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة، ولا يضاد الغفلة إلا العلم، ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة، والغفلة رأس الخطايا، فلا دواء إذن للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم، ومرارة الصبر.

الطريق الذي يسلكه الواعظ مع الخلق:

فـإن قلت: فـاذكر الطريـق الـذي ينبغي أن يسـلكه الواعـظ في طريـق الوعـظ مـع الخلـق؟ فـاعلم أن ذلك يطول...ونشير إلى الأنواع النافعة في حل عقد الإصـرار، وحمـل النـاس على تـرك الـذنوب، وهي أربعة أنواع:

الأول: أن يذكر مـا في القـرآن من الآيـات المخوفـة للمـذنبين والعاصـين، وكـذلك مـا ورد من الأخبـار والآثـار. والأخبـار والآثـار في ذم المعاصـي ومـدح التائبين لا تحصى.

الثاني: حكايات السلف الصالح وما حـرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم، فذلك شـديد الوقـع، ظـاهر النفع في قلوب الخلق.

الثالث: أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقـع على الـذنوب، وأن كـل مـا يصـيب العبـد من المصائب فهو بسبب جناياته.

والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيره.

أما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته، ويوفق لشـكرها، وكـل بليـة كفارة لذنوبه، وزيادة في درجاته.

الرابع: ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الـذنوب، كـالخمر والزنـا والسـرقة والقتـل والغيبـة والكـبر والحسد.

كتاب الصبر والشكر

بيان فضيلة الصبر:

وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف، وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر، وجعلها ثمرة له، قال تعالى: (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) [السجدة:24] وقال تعالى: (وتمت كلمت ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا) [الأعراف:137] وقال الله تعالى: (ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) [النحل:96] وقال تعالى: (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) [القصص:54] وقال الله تعالى: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) [الزمر:10] فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب، إلا الصبر، ووعد الصابرين بأنه معهم، فقال الله تعالى: (واصبروا إن الله مع الصابرين) [الأنفال:46] وعلق النصرة على الصبر، فقال تعالى: (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) [آل عمران:125] وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم، فقال تعالى: (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) [البقرة:157]

أقسام الصبر:

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يقهر داعى الهوى، فلا تبقى له قوة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر، وعند هذا يقال: من صبر ظفر، والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون، فلا جرم هم الصديقون المقربون (الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) [فصلت:30]

الحالة الثانية: أن تغلب دواعي الهوى، وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين، فيسلم نفسه إلى جند الشياطين،...وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون، وهم الذين استرقتهم شهواتهم، وغلبت عليهم شقوتهم.

الحالة الثالثة: أن يكون الحرب سجالاً بين الجندين، فتارة له اليد عليها، وتارة لها عليه، وهذا من المجاهدين يعد مثله لا من الظافرين، وأهل هذه الحالة هم الذين (خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم) [التوبة:102]

وينقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر، إلى ما يشق على النفس، فلا يمكن الدوام عليه، إلا بجهد جهيد، وتعب شديد، ويسمى ذلك تصبراً.

الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغني عنه في حال من الأحوال:

اعلم أن جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلـو من نوعين: إحداهما هـو الـذي يوافـق هـواه والآخـر الذي لا يوافقه، وهو محتاج إلى الصبر في كل واحـد منهما:

النوع الأول: ما يوافق هواه، وهـو الصـحة والسـلامة والمال والجـاه وكـثرة العشـيرة وجميـع ملاذ الـدنيا، وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور، فإنه إن لم يضـبط نفسـه عن الاسترسـال والركـون إليهـا والانهماك في ملاذها المباحة منها، أخرجـه ذلـك إلى البطـر والطغيـان....ولمـا فتحت أبـواب الـدنيا على الصحابة رضي الله عنهم، قالوا: ابتلينا بفتنة الضـراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر.

فالرجل كل الرجل من يصـبر على العافيـة، ومعـنى الصبر عليها أن لا يركن إليها...ولا ينهمـك في التنعم واللذة واللهو واللعب.

النوع الثاني: ما لا يوافق الهـوى والطبـع، وهـو ثلاثـة أقسام:

القسم الأول: ما يرتبط باختيـاره، وهـو أفعالـه الـتي توصف بكونها طاعة أو معصية:

الضـرب الأول: الطاعـة، والعبـد يحتـاج إلى الصـبر عليها، فالصبر على الطاعة شديد،

ويحتـاج المطيـع إلى الصـبر على طاعتـه في ثلاث أحوال:

الأولى: قبل الطاعة، وذلك في تصحيح النية، والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء، ودواعي الآفات، وعقد العزم على الإخلاص والوفاء. الحالة الثانية: حالة العمل، كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير. الحالة الثالثة: بعد الفراغ من العمل، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء.

الضرب الثاني: المعاصي، فما أحوج العبد إلى الصبر عنها، وأشد أنواع الصبر: الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة، فإذا انضافت العادة إلى الشهوة، تظاهر جندان من جنود الشيطان فلا يقوى باعث الدين على قمعها، ثم إن كان ذلك الفعل مما تيسر فعله، كان الصبر عنه أثقل على النفس. كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً.

القسم الثاني: ما لا يرتبط هجومه باختياره، وله اختيار في دفعه، كما لو أذى بفعل، أو قول، وجُني عليه في نفسه، أو ماله، فالصبر على ذلك بترك المكافأة، قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: ما كنا نعد إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى، قال تعالى (ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) [إبراهيم:12]

وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالاً، فقال بعض الأعراب من المسلمين: هذه قسمة ما

أريد بها وجه الله، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاحمرت وجنتاه، ثم قال: يرحم الله أخي موسى، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر.)

فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر.

القسم الثالث: ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره، كالمصائب مثل موت الأعزة، وهلاك الأموال، وزوال الصحة، وبالجملة سائر أنواع البلاء، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر.

والصبر على بلاء الله بضاعة الصديقين، فإن ذلك شديد على النفس، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أسألك من اليقين ما تهون علي به مصائب الدنيا)

وقال داود لسليمان عليهما السلام: يستدل على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضى فيما قد نال، وحسن الصبر فيما فات.

واعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع، وشق الجيوب، وضرب الخدود، والمبالغة في الشكوى، وإظهار الكآبة، وتغير العادة في الملبس والمفرش والمطعم، وهذه الأمور داخله تحت اختياره، فينبغي أن يجتنب جميعها، ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى، ويبقى مستمراً على عادته، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت.

وقـد قيـل إن الصـبر الجميـل: أن لا يعـرف صـاحب المصيبة من غيره، ولا يخرجـه عن حمـد الصـابرين، توجـع القلب، ولا فيضـان العين بالـدمع، فـإن ذلـك مقتضى البشرية، ولذلك لما مات إبراهيم ولد النـبي صلى الله عليه وسلم فاضت عينـاه، فقيـل لـه: أمـا نهيتنا عن هذا؟ فقال: (إن هذه رحمة، وإنمـا يـرحم الله من عباده الرحماء.) بل ذلك لا يخرج عن مقـام الرضا.

فإذن مهما دفع الكراهة بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بـالثواب نـال درجـة الصـابرين. نعم من كمـال الصبر: كتمـان المـرض، والفقـر، وسـائر المصـائب. وقد قيل: من كنوز البر: كتمان المصائب، والأوجـاع، والصدقة.

فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال.

دواء الصبر وما يستعان به عليه:

اعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء، ووعد الشفاء، فالصـبر وإن كـان شـاقاً أو ممتنعـاً فتحصـيله ممكن بمعجون العلم والعمل. فالعلم والعمل همـا الأخلاط التي منها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها.

والعبد إذا افتقر إلى الصبر عن شـهوة الوقـاع، وقـد غلبت عليه الشهوة...فباعث الشهوة سبيل تضـعيفه ثلاثة أمور:

أحــدها: أن ينظــر إلى مــادة قوتهــا، وهي الأغذيــة الطيبة المحركة للشهوة، فلا بد من قطعها بالصـوم، مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل.

الثاني: قطع أسبابه المهيجة فإنــه إنمـا يهيج بـالنظر إلى مظان الشهوة، إذا النظر يحرك القلب، والقلب يحـرك الشـهوة. وهـذا يحصـل بـالاحتراز عن مظـان وقوع البصر على الصورة المشتهاة والفرار منها.

الثــالث: تســلية النفس بالمبــاح من الجنس الــذي تشتهيه وذلـك بالنكـاح، فـإن كـل مـا يشـتهيه الطبـع ففي المباحات من جنسه ما يغني عن المحظــورات منه.

وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر

وأما تقوية باعث الدين فإنما يكون بطريقين:

أحدهما: أن يكثر فكره في الأخبار التي أوردنــاه في فضل الصبر، وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة.

الثاني: أن يعود مصارعة باعث الهوى تــدريجاً، قليلاً، قليلاً.

فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر.

بيان فضيلة الشكر:

اعلم أن اللــه قــرن الشـكر بالـذكر في كتابــه قـال تعــالى: (فــاذكروني أذكــركم واشــكروا لي ولا

تكفــرون) [البقــرة:152]وقــال تعــالى: (ســنجزي الشاكرين) [آل عمران:145] وقد قطـع اللـه تعـالى بالمزيـد مـع الشـكر، فقـال تعـالى: (لئن شـكرتم لأزيدنكم) [إبراهيم:7]

وقال رسول الله صلى الله عليـه وسـلم: (الطـاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر)

حد الشكر وحقيقته:

الشكر ينتظم من علم وحال وعمل، فـالعلم معرفـة النعمة من المنعم، والحـال الفـرح الحاصـل بإنعامـه مع الخضوع والتواضع، والعمل القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبــه، ويتعلــق ذلــك العمــل بــالقلب، وبــالجوارح، وباللســان. أمــا القلب فقصــد الخــير وإضماره لكافة الخلق، وأما باللسان فإظهار الشـكر لله بالتحميدات الدالة عليه، وأما الجوارح فاستعمال نعم الله في طاعته والتوقي من الاسـتعانة بهـا على معصـيته حـتى أن من شـكر العيـنين أن تسـتر كـل عيب تراه لمسلم، وشكر الأذنيين أن تستر كل عيب تسمعه فيه.

السبب الصارف للخلق عن الشكر:

اعلم أنــه لم يقتصــر بــالخلق عن شــكر النعمــة إلا الجهـل والغفلـة، فـإنهم منعـوا بالجهـل والغفلـة عن معرفة النعم، ولا يتصور شكرها إلا بعد معرفتهــا، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول: بلسانه: الحمد لله، الشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى

الشـكر أن يسـتعمل النعمـة في طاعـة اللـه. أمـا الغفلـة عن النعم فالنـاس بجهلهم لا يعـدون مـا يعم الخلـق، ويسـلم لهم في جميـع أحـوالهم نعمـة، فلا تراهم يشـكرون اللـه على روح الهـواء، ولـو انقطـع الهواء عنهم ماتوا.

كتاب الخوف والرجاء

الرجاء والخوف جناحـان بهمـا يطـير المقربـون إلى كل مقام محمـود، ومطيتـان بهمـا يقطـع من طـرق الآخرة كل عقبة كئود، فلا يقـود إلى قـرب الـرحمن وروح الجنــان إلا أزمــة الرجــاء، ولا يصــد عن نــار الجحيم والعذاب الأليم، إلا سياط التخويف.

حقيقة الرجاء:

الرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلـك المحبـوب المتوقـع لا بـد وأن يكـون لـه سبب، فإن كان انتظاره لأجـل حصـول أكـثر أسـبابه فاسم الرجـاء عليـه الصـادق، وإن كـان انتظـاراً مـع انخرام أسبابه فاسم الغرور والحمق عليه أصدق.

وقد عُلِمَ أن الدنيا مزرعة الآخـرة، والقلب كـالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جاريـة مجـرى حفـر الأنهــار وســياقة الميــاه إليهــا، والقلب المســتغرق بالدنيا كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر، ويـوم القيامة يوم الحصاد، ولا يحصـد أحـد إلا مـا زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقلما ينفـع إيمـان مـع

خبث القلب وسوء خلقه، كما لا ينمـو بـذر في أرض سبخة، فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفـرة برجـاء صاحب الـزرع الـذي طلب أرضـاً طيبـة، وألقى فيهـا بذراً جيداً، ثم أمده بما يحتاج إليه وهـو سـوق المـاء إليه في أوقاته، ثم نقى الشوك عن الأرض وكـل مـا يمنـع نبـات البـذر أو يفسـده، ثم جلس منتظـراً من فضل الله تعالى دفع الصواعق، والآفـات المفسـدة، إلى أن يتم الزرع، ويبلغ غايته، سمى انتظاره رجاء

وإن بث البــذر في أرض صــلبة ســبخة، مرتفعــة لا ينصب إليها الماء، ولم يشتغل بتعهد البـذر أصـلاً، ثم انتظر الحصاد منه، سمى انتظـاره حمقـاً وغـروراً لا رجاء.

فالرجاء يصدق على انتظـار محبـوب تمهـدت جميـع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد.

بيان فضيلة الرجاء:

قال النبي عليه الصلاة والسـلام: (لا يمـوتن أحـدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى) ودخل عليه الصلاة والسلام على رجـل وهـو في الـنزع، فقـال: (كيـف تجدك؟) فقال: أجدني أخـاف ذنـوبي، وأرجـو رحمـة ربي. فقال صلى الله عليه وسـلم: (مـا اجتمعـا في قلب عبد في هـذا المـوطن إلا أعطـاه اللـه يرجـوه، وآمنه مما يخاف.)

وقال صلى الله عليه وسلم: (إن اللـه تعـالى يقـول للعبـد يـوم القيامـة: مـا منعـك إذ رأيت المنكـر أن

تنكره؟ فإن لقنه اللـه حجتـه، قـال: يـا رب رجوتـك، وخفت الناس. قال: فيقـول اللـه تعـالى: قـد غفرتـه لك.)

وقال علي رضي الله عنه لرجل أخرجه الخـوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه: يا هـذا، يأسـك من رحمـة اللـه أعظم من ذنوبك.

دواء الرجاء:

هذا الـدواء يحتـاج إليـه أحـد رجلين: إمـا رجـل غلب عليـه اليـأس فـترك العبـادة، وإمـا رجـل غلب عليـه الخوف، فأضر بنفسه وأهله. فأما العاصـي المغـرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحـام المعاصي فأدويـة الرجـاء تنقلب سـموماً مهلكـة في حقه

ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حق الآيس، أو فيمن غلب عليه الخوف، قال الله تعالى: (قل يـا عبـادي الـذين أسـرفوا على أنفسـهم لا تقنطـوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) [الزمر:53] وقال عز وجل: (وإن ربك لـذو مغفرة للناس على ظلمهم) [الرعـد:6] وفي الخـبر المشهور: (إن الله تعالى كتب على نفسـه الرحمـة قبـل أن يخلـق الخلـق: إن رحمـتي تغلب غضـبي.) وقال عليه الصلاة والسلام: (من لقى الله لا يشرك به شيئاً حرمت عليه النار.)

حقيقة الخوف:

اعلم أن الخـوف عبـارة عن تـألم القلب واحتراقـه، بسبب توقع مكروه في الاسـتقبال، فـالعلم بأسـباب المكروه هـو السـبب البـاعث المثـير لإحـراق القلب وتألمه، وذلك الإحراق هـو الخـوف، فكـذلك الخـوف من اللــه تعــالى، تــارة يكــون لمعرفــة اللــه تعــالى ومعرفة صفاته، وأنه لو أهلك العـالمين لم يبـال ولم يمنعـه مـانع، وتـارة يكـون لكـثرة الجنايـة من العبـد بمقارفة المعاصي، وتارة يكون بهما جميعاً، وبحسب معرفته بعيوب نفسـه، ومعرفتـه بجلال اللـه تعـالى، فأخوف الناس لربه أعـرفهم بنفسـه وبربـه، وكـذلك قال صلى الله عليه وسلم: (أنا أخـوفكم للـه) وقـال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلمـاء) [فـاطر: 28] ثم إذا كملت المعرفـــة أورثت جلال الخـــوف واحــتراق القلب، ثم يقيض أثــر الحرقــة من القلب على الجـــوارح، بكفهـــا عن المعاصـــي، وتقيـــدها بالطاعــات، ولــذلك قيــل: ليس الخــائف من يبكى، ويمسـح عينـه، بـل من يـترك مـا يخـاف أن يعـاقب عليه.

قال أبو القاسم الحكيم: من خاف شـيئاً هـرب منـه، ومن خاف الله هرب إليه.

فضيلة الخوف والترغيب فيه:

الخوف هو النـار المحرقـة للشـهوات، فـإن فضـيلته بقدر ما يحـرق من الشـهوات، وبقـدر مـا يكـف عن المعاصــي، ويحث على الطاعــات، وكيــف لا يكــون الخــوف ذا فضــيلة وبــه تحصــل العفــة، والــورع،

والتقــوى، والمجاهــدة، وهي الأعمــال الفاضــلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلفى.

وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين: الهــدى والرحمــة والعلم والرضــوان، وهي مجــامع مقامات أهل الجنان، قال الله تعالى: (هُدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) [الأعراف:154]

وقال تعالى: (إنما يخشى اللـه من عبـاده العلمـاء) [فاطر:28] وصـفهم بـالعلم لخشـيتهم وكـل مـا دل على فضــيلة العلم دلّ على فضــيلة الخــوف، لأن الخوف ثمرة العلم.

وقـال عـز وجـل: (وخـافونِ إن كنتم مؤمـنين) [آل عمران: 175] فأمر بـالخوف وأوجبـه، وشـرطه في الإيمان، فلذلك لا يتصور أن ينفك مـؤمن عن خـوف وإن ضـعف، ويكـون ضـعف خوفـه بحسـب ضـعف معرفته وإيمانه.

قال الفضيل: من خـاف اللـه دلـه الخـوف على كـل خير.

وقال يحيى بن معاذ: ما من مؤمن يعمـل السـيئة إلا ويلحقها حسنتان، خوف العقاب، ورجاء العفو.

وكان أبـو الحسـن الضـرير يقـول: علامـة السـعادة: خوف الشقاوة.

وقيل ليحيى بن معـاذ: من آمن الخلـق غـداً؟ فقـال: أشدهم خوفاً اليوم.

وقال الحسن: إنك إن تخالط أقواماً يخوفونـك حـتى يدرك أمن، خير لك من أن تصحب أقوامـاً يؤمنونـك حتى يدرك الخوف.

وقال أبو سليمان الدارني: ما فارق الخـوف قلبـاً إلا خرب.

البكـاء ثمـرة الخشـية، قـال اللـه تعـالى: (يبكـون ويزيدهم خشوعاً) [الإسراء:109] وقـال صـلى اللـه عليه وسـلم: (سـبعة يظلهم اللـه في ظلـه، يـوم لا ظـل إلا ظلـه) وذكـر منهم: (رجلاً ذكـر اللـه خاليـاً ففاضت عيناه.)

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنـه: من اسـتطاع أن يبكى فليبك، ومن لم يستطع فليتباك.

وكل ما ورد في فضل...البكاء، فهو دلالة على فضل الخوف، وأن جملة ذلك متعلقة به، إما تعلق السبب، أو تعلق المسبب.

بيــان الأفضــل غلبــة الخــوف أو غلبــة الرجــاء أو اعتدالهما:

الخــوف والرجــاء دواءان يــداوى بهمــا القلــوب، ففضلهما بحسب الداء الموجـود، فـإن كـان الغـالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى، والاغـترار بـه فـالخوف أفضـل، وإن كـان الأغلب هـو اليـأس

والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل.

ويجوز أن يقال مطلقاً الخوف أفضل....لأن المعاصي والاغترار على الخلق أغلب، بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة، فيكون ذلك سبباً للتكاسل عن العمل، وداعياً إلى الانهماك في المعاصي، فإن ذلك قنوط وليس بخوف، إنما الخوف هو الذي يحث على العمل، ويكدر جميع الشهوات فهو الخوف المحمود...أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء...فإنه يقوى قلبه، ويحبب إليه ربه، ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنياً إلا محباً لله تعالى ليكون محباً للقاء الله تعالى.

أسباب سوء الخاتمة، والاستعداد لها:

لسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت، مثل: البدعة، والنفاق، والكبر، وجملة من الصفات المذمومة، ولذلك اشتد خوف الصحابة رضوات الله عليهم من النفاق.

فاشتغل بالاستعداد لها، فواظب على ذكر الله تعالى، وأخرج من قلبك حب الدنيا، واحترس عن فعل المعاصي بجوارحك، وعن الفكر فيها بقلبك، واحترز من مشاهدة المعاصي، ومشاهدة أهلها، جهدك، فإن ذلك يؤثر في قلبك، وإياك أن تسوف وتقول: سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة، فإن كل

نفس من أنفاسك خاتمتك، إذ يمكن أن تختطف فيه روحك، فراقب قلبك، وإياك أن تهمله لحظة، فلعل تلك اللحظة خاتمتك.

كتاب الفقر والزهد

فضيلة الفقر:

قال تعالى: (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم) [الحشر:8] وقال تعالى: (للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض) [البقرة:273] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يدخل فقراء أمتي قبل أغنيائها بخمسمائة عام.) وقال عليه الصلاة والسلام: (اطلعت على الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء.) وقال يحيى بن معاذ: حبك الفقراء من أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين.

آداب الفقير في فقره:

لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر، ويكون متوكلاً على الله تعالى واثقاً به، وأن يظهر التعفف والتجمل، قال تعالى: (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) [البقرة:273] وأن لا يفتر بسبب الفقر عن العبادة.

آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال:

ينبغي أن يلاحظ فيما جاءه ثلاثة أمور: المال، غـرض المعطي، غرضه في الأخذ.

أما المال، فينبغي أن يكون خالياً من الشـبهات فـإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه.

أما غرض المعطي فلا يخلو أن يكون غرضه: الهدية، فلا بأس بقبولها، أو أن يكون للثواب وذلك صدقة أو زكاة، فعليه أن ينظر هل هو مستحق للزكـاة؟ أو أن يكون غرضـه السـمعة والريـاء فينبغي أن يـرد عليـه قصـده الفاسـد ولا يقبلـه، وأمـا غرضـه في الأخـذ فينبغي أن ينظر: أهو محتاج إليـه فيمـا لا بـد منـه أو هو مستغن عنه، فإن كان محتاجاً فالأفضل له الأخذ.

بيان حقيقة الزهد:

الزهد....عبارة عن انصراف الرغبة عن الشـيء إلى ما هو خـير منـه...وكـل من بـاع الـدنيا بـالآخرة فهـو زاهد في الدنيا، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضاً زاهد ولكن في الآخرة، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا.

فضيلة الزهد:

قال تعالى: (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خـير وأبقى) [طه:131] وقال تعالى: (الـذين يسـتحبون الحيـاة الـدنيا على الآخـرة) [إبـراهيم:3] فوصـف

الكفار بذلك، فمفهومه أن المؤمن هو الـذي يتصـف بنقيضه، وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا.

قـال بعض الصـحابة لصـدر من التـابعين: أنتم أكـثر أعمالاً واجتهاداً من أصحاب رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسلم، وكانوا خيراً منكم. قيل: ولِم ذلك؟ قال: كانوا أزهد في الدنيا منكم.

وقال عمر رضي الله عنه: الزهـادة في الـدنيا راحـة القلب والجسد.

علامات الزهد:

ينبغي أن يعول على ثلاث علامات:

الأولى: أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود.

الثانية: أن يستوى عند ذامه ومادحه

الثالثة: أن يكـون أنسـه باللـه تعـالى، والغـالب على قلبه حلاوة الطاعة.

قال أحمـد بن حنبـل وسـفيان رحمهمـا اللـه: علامـة الزاهد قصر الأمل.

وقــال يحــيى بن معــاذ: علامــة الزهــد: الســخاء بالموجود.

كتاب التوكل

فضيلة التوكل:

قــال اللــه تعــالى: (وعلى اللــه فتوكلــوا إن كنتم مؤمنين) [المائـدة:123] وقـال عـز وجـل: (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) [إبراهيم:12] وقال تعـالى: (ومن يتوكــل على اللــه فهــو حســبه) [الطلاق:3] وقال سـبحانه وتعـالى: (إن اللـه يحب المتـوكلين) [آل عمران:159] وأعظم بمقامٍ موسومٍ بمحبة الله تعال صاحبه، ومضـمون كفايـة اللـه تعـالى مُلابسـه، فمن الله تعالى حسبهُ وكافيه ومحبة ومراعيه، فقــد فاز الفوز العظيم.

وقال رسول الله صلى الله عليـه وسـلم: (لـو أنكم تتوكلـون على اللـه حـق توكلـه لـرزقكم كمـا يـرزق الطير تغدو خماصاً، وتروح بطاناً.)

قال بعضهم: متى رضيت بالله وكيلاً وجدت إلى كــل خيرٍ سبيلاً.

بيان حال التوكل:

قـد يُظنُ أن معـنى التوكـل: تـرك الكسـب بالبـدن، وترك التدبير بالقلب،...وهذا ظن الجهال، فـإن ذلـك حـرام في الشـرع،...فلـو لم تـزرع الأرض، وطمعت في أن يخلق اللـه تعـالى نباتـاً من غـير بـذر، أو تلـد زوجتك من غير وقاع، فكل ذلك جنون.

والنبي صلى الله عليه وسلم وصف المتــوكلين، فلم يصفهم بأنهم لا يكتسـبون، ولا يسـكنون الأمصـار ولا يأخذون من أحد شـيئاً بـل وصـفهم بـأنهم يتعـاطون هذه الأسباب

وقد ادخر عليه الصلاة والسلام لعياله قوت سنة فالمتوكل موحد قوي القلب مطمئن النفس إلى فضل الله واثق بتدبيره...وليس من شروط التوكل ترك الأسباب، والذي يسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس إلا نادراً، ويكون سفره من غير استصحاب زاد، فهذا ليس شرطاً في التوكل، بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين.

كتاب محبة الله عز وجل

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض، ويدلّ على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل: (يحبهم ويحبونه) [المائدة:54] وقوله تعالى: (والذين آمنوا أشد حباً لله) [البقرة:165] وهو دليل على إثبات الحب، وإثبات التفاوت فيه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين.)

وقال عليه الصلاة والسلام في دعائه: (اللهم ارزقني حبك، وحب من أحبك، وحب ما يقربني إلى حبك.)

وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول متى الساعة؟ قال: (ما أعددت

لها؟) فقال: ما أعدت لها كثرة صلاة، ولا صـيام، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال له رسـول اللـه صـلى الله عليه وسـلم: (المـرء مـع من أحب) قـال أنس رضي الله عنه: فما رأيت المسلمين فرحـوا بشـيء بعد الإسلام فرحهم بذلك.

قال الحسن: من عرف ربه أحبه، ومن عـرف الـدنيا زهد فيها.

الأسباب المقوية لمحبة الله تعـالى، وتفـاوت النـاس في ذلك:

اعلم أن أسعد الخلق حالاً في الآخرة أقواهم حباً لله تعالى، فإن الآخرة معناها القـدوم على اللـه تعـالى، ودرك سـعادة لقائـه، وأصـل الحب لا ينفـك عنـه مـؤمن، لأنـه لا ينفـك عن أصـل المعرفـة، وأمـا السبب....لقوة المحبة: فقوة معرفة الله تعالى.

واعلم أن المؤمـنين مشـتركون في أصـل الحب لاشـتراكهم في أصـل المحبـة، ولكنهم متفـاوتون لتفاوتهم في المعرفة، وفي حب الدنيا.

محبة الله تعالى للعبد:

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبـده، قـال تعـالى: (إن اللـه يحب الـذين يقاتلون في سبيله صفاً) [الصـف:4] وقـال تعـالى: (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) [البقـرة: 222]

وقال عليه الصلاة والسلام: (قال الله تعالى: لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به.)

علامات محبة العبد لله تعالى:

اعلم أن المحبة يدعيها كل أحد، وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى، والمحبة شجرة طيبة...ثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح.

فمنها: حب لقاء الله تعالى، في دار السلام.

ومنها: أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى، على ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيجتنب اتباع الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظباً على طاعة الله، ومتقرباً إليه بالنوافل، وطالباً عنده مزايا الدرجات،....وقد وصف الله تعالى المحبين بالإيثار، فقال: (يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) [الحشر:9]

ومنها: أن يواظب على التهجد، ويغتنم هدء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق...

فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده، وأطيب من منجاة الله كيف تصحّ محبته؟

ومنها: أن يكون مشتغلاً بذكر الله تعالى لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه، فعلامة حب الله: حب ذكره.

ومنها: حب القرآن، قال ابن مسعود: لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا في القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل.

ومنها: ألا يعصيه، فمن أحب الله لا يعصيه، ولذلك قال ابن المبارك:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في الفعال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

قال سهل رحمه الله تعالى: ليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل صار حبيباً، وإنما الحبيب من اجتنب المناهي.

فإن قلت: فالعصيان هل يضاد المحبة؟ فأقول: إنه يضاد كمالها، ولا يضاد أصلها.

ومنها: حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل ما ينسب إليه، قال عز وجل: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) [آل عمران:31]

ومنها: أن يعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى، وطاعته.

ومنهـا: أن يتنعم بالطاعـة، ولا يسـتثقلها، كمـا قـال بعضهم: كابـدت الليـل عشـرين سـنة، ثم تنعمت بـه عشرين سنة.

ومنها: أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله، رحيمـاً بهم شديداً على جميع أعداء اللـه، كمـا قـال تعـالى: (أشـداء على الكفـار رحمـاء بينهم) [الفتح:29] ولا تأخذه لومة لائم، ولا يصرفه عن الغضب لله صارف.

ومنها: أن يكون في حبه خائفاً، متضـائلاً تحت الهيبـة والتعظيم.

وبالجملة جميع محاسن الدين، ومكارم الأخلاق ثمرة الحب.

كتاب النية والإخلاص والصدق

فضيلة النية:

قـال اللـه تعـالى: (ولا تطـرد الـذين يـدعون ربهم بالغــداة والعشــي يريــدون وجهــه) [الأنعــام:52] والمراد بتلك الإرادة هي النية.

وقال تعالى: (إن يريدا إصـلاحاً يوفـق اللـه بينهمـا) [النساء:35] فجعل النية سبب التوفيق.

وقال رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: (إنمـا الأعمال بالنيات، ولكـل امـرئ مـا نـوى، فمن كـانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسـوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امـرأة ينكحهـا فهجرته إلى ما هاجر إليه.)

وقال عليه الصلاة والسلام: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)

وقال صلى الله عليه وسلم: (يبعث كل عبد على ما مات عليه)

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أفضل الأعمال: أداء ما افترض الله، والورع عما حرم الله، وصدق النية فيما عند الله.

وكتب سالم بن عبدالله إلى عمر بن عبدالعزيز: اعلم أن عون الله للعبد على قدر النية، فمن تمت نيته تم عون الله له، ومن نقصت نقص بقدره.

وقال أبو هريرة: مكتوب في التوراة ما أريد به وجهي فقليله كثير، وما أريد به غيري فكثيره قليل. قال بعضهم: رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية

وقال الثوري: كانوا يتعلمون النية للعمل، كما تتعلمون العمل.

وقال بعض العلماء: اطلب النية للعمل قبل العمل، وما دمت تنوى الخير فأنت بخير.

تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية:

الأعمال ثلاثة أقسام: معاص، وطاعات، ومباحات.

القسم الأول: المعاصي، وهي لا تتغير عن موضعها بالنية، كالذي يغتاب إنساناً مراعاة لقلب غيره، أو يطعم فقيراً من مال غيره، أو يبني مدرسة أو مسجداً بمال حرام، وقصده الخير، فهذا كله جهل، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلماً وعدواناً ومعصية.

وقوله صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات) يختص من الأقسام الثلاثة، بالطاعات والمباحات دون المعاصي، إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد، فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد، نعم للنية دخل فيها، وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها، وعظم وبالها.

القسم الثاني: الطاعات، وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها، وفي تضاعف فضلها أما الأصل: فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية. وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها.

القسم الثالث: المباحات، وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات، يصير بها من محاسن القربات، وينال بها معالي الدرجات. فما أعظم خسران من يغفل عنها.

والمباحـات كثـيرة، ولا يكمن إحصـاء النيـات فيهـا، ولهذا قال بعض السلف: إني أسـتحب أن يكـون لي في كل شيء نية، حتى في أكلي، وشربي، ونـومي، ودخولي إلى الخلاء.

فضيلة الإخلاص:

قال الله تعالى: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) [البينة:5] وقال سـبحانه: (ألا للـه الـدين الخالص) [الزمر:3] وقال عز وجل: (إلا الذين تابوا وأصــلحوا واعتصــموا باللــه وأخلصــوا دينهم للــه) [النساء:146] وقال تعالى: (فمن كـان يرجـو لقـاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحــداً) [الكهــف:110] ولا يتخلص العبــد من الشــيطان إلا بالإخلاص، ولـذلك كـان معـروف الكـرخي يقـول: يـا نفس أخلصـي تتخلصـي. وقـال يعقـوب المكفـوف: المخلص من يكتم حسناته، كما يكتم سـيئاته. وكتب عمر بن الخطـاب رضـي اللـه عنـه إلى أبي موسـى الأشعري: من خلصت نيته كفاه الله تعـالى مـا بينـه وبين الناس.

ويقال: العلم بذر، والعمل زرع، وماؤه الإخلاص.

فضيلة الصدق:

قـال اللـه تعـالى: (رجـال صـدقوا مـا عاهـدوا اللـه عليه) [الأحزاب:23] ويكفى في فضيلة الصدق، أن اللـه تعـالى وصـف بـه الأنبيـاء، في معـرض المـدح والثنـاء، فقـال اللـه عـز وجـل: (واذكـر في الكتـاب

إبـراهيم إنـه كـان صـديقاً نبيـاً) [مـريم:41] وقـال تعالى: (واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صـادق الوعد وكان رسولاً نبياً) [مريم:54] وقـال: (واذكـر في الكتاب إسماعيل إنـه كـان صـادق الوعـد وكـان رسولاً نبياً) [مريم:56] وقال عليه الصلاة والسـلام: (إن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهـدي إلى الجنـة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صـديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهـدي إلى النـار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كـذاباً.) قـال ابن عبـاس: أربـع من كن فيـه فقـد ربح: الصـدق والحياء وحسن الخلق والشكر.

مراتب الصدق:

الصدق الأول: صدق اللسان، وحق على كل عبـد أن يحفـظ ألفاظـه، فلا يتكلم إلا بالصـدق، فمن حفـظ لسـانه عن الإخبـار عن الأشـياء على خلاف مـا هي عليه فهو صادق.

الصدق الثـاني: في النيـة والإرادة، ويرجـع ذلـك إلى الإخلاص، وهـو أن لا يكـون لـه بـاعث في الحركـات والسـكنات إلا اللـه تعـالى، فـإن مازجـه شـوب من حظوظ النفس، بطل صدق النية، وصـاحبه يجـوز أن يسمى كاذباً.

الصدق الثالث: صدق العزم، فيقـول في نفسـه: إن رزقني الله مالاً تصدقت.

الصدق الرابع: في الوفاء بالعزم، فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال، إذ لا مشقة في الوعد والعزم، والمؤنة خفيفة، فإذا حقت الحقائق، وحصل التمكن، انحلت العزيمة قال مجاهد: رجلان خرجا على ملأ من الناس فقالا: إن رزقنا الله تعالى مالاً لنتصدقن فبخلوا به، فنزلت: (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين * فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) [التوبة:75_77] فجعل العزم عهداً، وجعل الخلف فيه كذباً، والوفاء به صدقاً. وهذا أشد من الثالث فإن الناس تسخو بالعزم ثم تكيع عند الوفاء.

الصدق الخامس: الصدق في الأعمال، وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به...ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته، ليس يقصد به مشاهدة غيره، ولكنه قلبه غافل عن الصلاة، فمن ينظر إليه يراه قائماً بين يدي الله عز وجل، وهو بالباطن قائم في السوق بين يدى شهوة من شهواته.

كتاب المراقبة والمحاسبة

قال الله تعالى: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) [الأنبياء:47]

وقال تعالى: (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) [الكهف:49]

وقال تعالى: (يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد) [المجادلة:6]

وقال تعالى: (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم * فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرةٍ شراً يره) [الزلزلة:6_8]

وقال تعالى: (ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) [البقرة:281]

وقال تعالى: (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوءٍ تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه) [آل عمران:30]

وقال تعالى: (واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه) [البقرة:235] فعرف أباب البصائر أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في الحساب، ويطالبون بمثاقيل الذرّ، وتحققوا أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة، وصدق المراقبة، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب، خفّ في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه،

دامت حسرته، وطالت في عرصات القيامة وقفاتـه، وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته.

المراقبة:

قال الله تعالى: (أفمن هو قائم على كـل نفس بمـا كسبت) [الرعـد:33] وقـال تعـالى: (ألم يعلم بـأن الله يرى) [العلق:14] وقال تعـالى: (إن اللـه كـان عليكم رقيباً) [النساء:1] وقال تعالى: (والـذين هم لأماناتهم وعهـدهم راعـون * والـذين هم بشـهاداتهم قائمون) [المعارج:32_33]

وقد سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان، فقال: (أن تعبد الله كأنك تراه)

وقال عليه الصلاة والسلام: (اعبد اللـه كأنـك تـراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.)

قـال أبـو عثمـان: قـال لي أبـو حفص: إذا جلسـت للنـاس، فكن واعظـاً لنفسـك، وقلبـك، ولا يغرنـك اجتمـاعهم عليـك، فـإنهم يراقبـون ظـاهرك، واللـه رقيب على باطنك

وحكي عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها، فقالت له: ألا تسـتحيى؟ فقـال: ممن أسـتحيى ومـا يرانا إلا الكواكب؟ قالت: فأين مكوكبها؟

وقـال رجـل للجنيـد: بم أسـتعين على غض البصـر؟ فقال: بعلمك أن نظر اللـه إليـك، أسـبق من نظـرك إلى المنظور إليه.

وقال سفيان الثوري: عليك بالمراقبة ممن لا تخفي عليه خافية.

وقال السنجي: إن المنافق ينظر فإذا لم ير أحداً دخل مدخل السوء، وإنما يراقب الناس، ولا يراقب الله تعالى.

لا يخلو العبد إما أن يكون في طاعة، أو معصية، أو في مباح.

فمراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال، ومراعاة الأدب، وحراستها من الآفات.

وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم، والإقلاع والحياء.

وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب، ثم بشهود المنعم في النعمة، وبالشكر عليها

محاسبة النفس بعد العمل:

قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ) [الحشر:18] وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال،

وقال تعالى: (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) [الأعراف:201]

وقال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا.

وعن ميمون بن مهران: لا يكـون العبـد من المتقين، حتى يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة شريكه.

رأس مال العبد في دينه: الفرائض، وربحـه النوافـل والفضـائل، وخسـرانه المعاصـي. فيحاسـب نفسـه على الفرائض أولاً، فإن أداها على وجهها شكر اللــه تعالى عليها، ورغبها في مثلها، وإن فوتها من أصــلها طالبهـا القضـاء، وإن أداهـا ناقصـة كملهـا الجـبران بالنوافــل، وإن ارتكب معصــية اشــتغل بمعاتبتهــا، ليستوفي منها مـا يتـدارك بـه مـا فـرط، كمـا يصـنع التاجر بشريكه.

ومهما حاسب نفسه فلن تسلم عن مقارفة معصية، وارتكاب تقصـير في حـق اللـه تعـالى، فلا ينبغي أن يهملها، فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي، وأنست بها نفسه، وعسر عليه فطامهـا، وكـان ذلـك سبب هلاكها.

ومن أنفع العلاج أن تطلب صحبة عبد من عبـاد اللـه مجتهد في العبادة فتقتدي به.

أو تعدل إلى سماع أحوالهم، ومطالعة أخبارهم، ومـا كانوا فيه من الجهد. قال أبو الـدرداء: لـولا ثلاث مـا أحببت العيش يومـاً واحـداً، الظمـأ للــه بـالهواجر، والسـجود للــه في جـوف الليـل، ومجـالس أقـوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر.

توبيخ النفس ومعاتبتها:

اعلم أن أعدى عدوك نفسك الـتي بين جنبيـك، وقـد خُلقت أمـارة بالسـوء، ميالـة إلى الشـرّ، فـرّارة من الخير، وأُمـرت بتزكيتهـا، وتقويمهـا، وقودهـا بسـلال القهر إلى عبادة ربها وخالقها، ومنعهـا من شـهواتها، وفطامها عن لذاتها، فـإن أهملتهـا جمحت وشـردت، ولم تظفــر بهــا بعــد ذلــك، وإن لازمتهــا بــالتوبيخ والمعاتبة، كانت نفسك اللوامة التي أقسم الله بهـا، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة، المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضــية، فلا تغفلن ســاعتها عن تــذكيرها، فتقــول لهــا: يــا نفس، أمــا تعرفين ما بين يديك من الجنة والنـار، وأنـك صـائرة إلى إحداهما على القرب؟ فمالـك تشـتغلين بـاللهو، وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم، وعسـاك اليـوم تختطفين أو غـداً، فـأراك تـرين المـوت بعيـداً؟ أمـا تعلمين أن كـل مـا هـو آت قـريب؟ أمـا تعلمين أن الموت يأتي بغتة؟ وأن كل نفس من الأنفـاس يمكن أن يكـون فيـه المـوت فجـأة؟ فمالـك لا تسـتعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب؟ أمـا تتـدبرين قوله تعالى: (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلـةٍ معرضون * ما يـأتيهم من ذكـر من ربهم محـدثٍ إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهيةً قلـوبهم) [الأنبيـاء:1_3] ويحك يا نفس لـو واجهـك عبـد من عبيـدك أو أخ من إخوانـك بمـا تكرهينـه كيـف كـان غضـبك عليـه ومقتــك لــه، فبــأي جســارة تتعرضــين لمقت اللــه وغضبه، وشديد عقابه، أفتظنين أنك تطيقين عذابه؟ هيهات، هيهات! فمالك تسوفين العمل، والموت لـك

بالمرصاد، ولعله يختطفك من غير مهلة، فما المـانع من المبادرة، وما الباعث لك على التسويف، هل لـه سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك؟ وليت شـعري ألم الصبرِ عن الشهوات أعظم شـدة وأطـول مـدة، أو ألم النار في دركات جهنم؟

كتاب التفكر

فضيلة التفكر:

أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابـه العزيـز في مواضـع لا تحصـى، وأثـنى على المتفكـرين، فقـال تعـالى: (الـذين يـذكرون اللـه قيامـاً وقعـوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السـماوات والأرض ربنـا ما خلقت هذا باطلاً) [آل عمران:191]

وكان سفيان بن عيينة كثيراً ما يتمثل بقول القائل:

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عـــبرة

وقال وهب بن منبه: ما طالت فكـرة امـرئ قـط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل.

وقال عمر بن عبـدالعزيز: الفكـرة في نعم اللـه عـز وجل من أفضل العبادة.

وعن ابن عباس قال: ركعتـان مقتصـدتان في تفكـر خير من قيام ليلة بلا قلب.

قال أبو سليمان: الفكـر في الآخـرة يـورث الحكمـة ويحيى القلوب.

قال الشافعي: استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكر.

التفكر في خلق الله تعالى:

الموجودات المخلوقة فيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمـة اللـه وقدرتـه وجلالـه وعظمتـه، فالسـماوات بكواكبهـا وشمسـها وقمرهـا وحركتهـا ودورانهـا في طلوعهــا وغروبهــا والأرض بمــا فيهــا من جبالهــا ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتهـا، ومـا بين السماء والأرض وهو الجو بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحهـا، فهذه الأجناس المشاهدة كل جنس منها ينقسم إلى أنواع، وكل نـوع ينقسـم إلى أقسـام، ويتشـعب كـل قسم إلى أصناف، ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صـفاته وهيئاتـه ومعانيـه، وجميـع ذلـك مجال الفكر.

وقد ورد الحث على التفكر في هذه الآيات، كما قال تعـالى: (إن في خلـق السـماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب) [آل عمران:190] وكما قال تعـالى: (ومن آياتـه أن خلقكم من تـراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) [الروم:20]

فمن آياته: الإنسـان المخلـوق من النطفـة، وأقـرب شيء إليك نفسـك، وفيـك من العجـائب الدالـة على

عظمة الله تعالى، ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه. قال تعالى: (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) [الذاريات:21] ومن آياته: الأرض، فمن آياته أن خلق الأرض فراشاً ومهاداً، وسلك فيها سبلاً فجاجاً، وجعلها ذلولاً لتمشوا في مناكبها، وجعلها قارة لا تتحرك، وأرسى فيها الجبال أوتاداً لها تمنعها من أن تميد، قال تعالى: (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها) [الملك:15] وقال عز وجل: (الذي جعل لكم الأرض فراشاً) [البقرة:22] وقد أكثر في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها، فظهرها مقر للأحياء، وبطنها مرقد للأموات، قال تعالى: (ألم نجعل الأرض كفاتاً * أحياءً وأمواتاً) [المرسلات:25_26]

ومن آياته: الجواهر المودعة تحت الجبال، والمعادن الحاصلة من الأرض، ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة.

فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب، والفضة، وغيرها، كالنحاس والحديد والرصاص، وكيف هدى الناس إلى استخراجها، وتنقيتها، واتخاذ الأواني والآلات والنقود والحلي منها.

ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والقار وغيرها. وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لتطيب

بعض الطعـام، ولـو خلت عنـه بلـدة لتسـارع الهلاك إليها.

ومن آياتـه: أصـناف الحيوانـات، وانقسـامها إلى مـا يطير، وإلى ما يمشي، وانقسام مـا يمشـي، إلى مـا يمشــي على رجلين، وإلى مــا يمشــي على أربــع، وعلى عشــر، وعلى مائــة، كمــا يشــاهد في بعض الحشــرات، ثم انقســامها في المنــافع، والصــور والأشكال، والأخلاق والطباع. فانظر إلى طيور الجو، وإلى وحوش البر، والبهـائم الأهليـة، تـرى فيهـا من العجائب، ولا تشك معـه في عظمـة خالقهـا، وقـدرة مقدرها، وحكمة مصورها.

ومن آياته: البحار العميقـة المكتنفـة لأقطـار الأرض، حــتى إن جميــع المكشــوف من البــوادي والجبــال والأرض، بالإضـافة إلى المـاء كجزيـرة صـغيرة في بحــر عظيم، وبقيــة الأرض مســتورة بالمــاء، وقــد شاهدت عجائب الأرض وما فيها، فتأمل الآن عجائب البحر، فإن عجـائب مـا فيـه من الحيـوان والجـواهر أضعاف عجائب مـا تشـاهده على وجـه الأرض، كمـا أن سعته أضـعاف سـعة الأرض، ومـا من صـنف من أصناف حيـوان البر من فـرس، أو طـير، أو بقـر، أو إنسان إلا وفي البحر أمثاله وأضعافه، وفيـه أجنـاس لا يعهد لها نظير في البر، وقـد ذكـرت أوصـافها في مجلدات، وجمعها أقوام عنـوا بركـوب البحـر وجمـع عجائبه.

ومن آياته: الهواء اللطيف، يدرك بحس اللمس عنــد هبوب الرياح جسمه، ولا يرى بعين شخصه، ثم انظر إلى عجاب الجو، وما يظهر فيه من الغيوم والرعــود والبروق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق، فهي عجائب ما بين السـماء والأرض، وقـد أشـار القـرآن إلى جملة من ذلك: (وما خلقنـا السـماوات والأرض ومـا بينهمـا لاعـبين) [الـدخان:38] فتأمـل في خلـق الله تعالى، فمن نظر في هذه الأمور...اسـتفاد منـه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته، واهتدى به.

كتاب ذكر الموت وما بعده

الترغيب في الإكثار من ذكر الموت:

اعلم أن المنهــك في الــدنيا، المكب على غرورهــا، المحب لشواتها، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإذا ذُكر به كرهه، ونفـر منـه. قـال اللـه: (قل إن الموت الـذي تفـرون منـه فإنـه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشـهادة فينـبئكم بمـا كنتم تعملون) [الجمعة:8]

وأما التائب: فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية، فيفي بتمام التوبة.

وفي ذكر الموت ثواب وفضل، فإن المنهمك يستفيد بــذكر المــوت، التجــافي عن الــدنيا، إذ ينغص عليــه نعيمه، ويكدر عليه صفو لذته.

فضل ذكر الموت:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أكـثروا من ذكر هاذم اللذات) ومعنـاه: نغصـوا بـذكره اللـذات، حتى ينقطع ركونكم إليها، فتقبلوا على الله تعالى.

ذكــر المــوت يــوجب التجــافي عن دار الغــرور، ويتقاضـى الاسـتعداد للآخـرة، والغفلـة عن المـوت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا.

قال الحسن: فضح الموت الدنيا فلم يترك لــذي لب فرحاً.

وقال الربيع بن خثيم: ما غائب ينتظره المؤمن خيراً له من الموت.

وقال كعب: من عرف المـوت هـانت عليـه مصـائب الدنيا وهمومها.

قالت صفية رضي الله عنها: إن امـرأة اشـتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها، فقالت: أكـثري من ذكـر المـوت يـرق قلبـك، فـرق قلبهـا، فجـاءت تشكر عائشة

بيان الطريق لذكر الموت:

اعلم أن الموت هائل، وخطره عظيم، وغفلة النـاس عنـه لقلـة فكـرهم فيـه وذكـرهم فيـه، ومن يـذكره، ليس يذكره بقلب فارغ، بـل بقلب مشـغول بشـهوة الدنيا، فلا ينجع ذكر الموت في قلبـه، وأنجـع طريـق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذيم مضـوا قبلـه، فيتـذكر مـوتهم، ومصـارعهم تحت الـتراب، ويتـذكر

صورهم في مناصبهم وأحـوالهم، ويتأمـل كيـف محـا التراب الآن حسن صورهم، وكيف تبـددت أجـزاؤهم في قبورهم.

ومهما تذكر رجل رجلاً وفصل في قلبه حاله، وكيفية موته، وتذكر نشاطه، وتردده وتأمله للعيش والبقـاء، ونسيانه للموت، وانخداعه بمواتاة الأسباب، وركونـه إلى القـوة والشـباب، وميلـه إلى الضـحك واللهـو، وغفلتـه عمـا بين يديـه من المـوت الـذريع، والهلاك السريع. وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه، وكيف كان يضحك وقد أكـل الـتراب أسـنانه، وكيـف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه في وقت إليه، حتى جـاءه المـوت في وقت لم يحتسـبه، فانكشـفت لـه صورة الملك، وقرع سمعه النداء، إما: الجنـة، وإمـا: النار، فعند ذلك ينظر في نفسـه أنـه مثلهم، وغفلتـه كغفلتهم، وســتكون عاقبتــه كعــاقبتهم. وقــال ابن مسعود رضي الله عنه: السعيد من وعظ بغيره.

قال أبو الدرداء رضي اللـه عنـه: إذا ذكـرت المـوتى فعد نفسك كأحدهم.

فملازمة هذه الأفكـار وأمثالهـا، مـع دخـول المقـابر، ومشاهدة المرضى، هو الذي يجدد ذكـر المـوت في القلب، بحيث يصير نصب عينيه.

ومهما طاب قلبه بشيء من الـدنيا، ينبغي أن يتـذكر في الحال أنه لا بد له من مفارقتـه نظـر ابن مطيـع إلى داره فأعجبه حسنها ثم وقال: والله لولا المـوت

لكنت بـك مسـروراً ولـولا مـا نصـير إليـه من ضـيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا. ثم بكى بكاء شديداً.

فضيلة قصر الأمل:

قال رسول الله صلى الله عليـه وسـلم لعبداللـه بن عمـر: إذا أصـبحت فلا تحـدث نفسـك بالمسـاء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصـباح، وخـذ من حياتـك لموتك، ومن صحتك لسقمك.) قـال معـروف: نعـوذ بالله من طول الأمل، فإنه يمنع من خير العمل

قال الثوري: الزهد في الدنيا: قصر الأمل.

قال عمر بن عبدالعزيز: إن لكل سفر زاداً لا محالة، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخـرة التقـوى، ولا يطولن عليكم الأمد، فتقسوا قلوبكم.

كتب رجل إلى أخ له: إن الموت من الإنسان قريب، وللنقص في كل يوم منه نصيب، وللبلاء في جسـمه دبيب، فبادر قبل أن تنادى بالرحيل، والسلام.

وقال عبداللـه بن سـميط: سـمعت أبي يقـول: أيهـا المغـتر بطـول صـحته، أمـا رأيت ميتـاً قـط من غـير سقم، أيها المغتر بطـول المهلـة، أمـا رأيت مـأخوذاً قـط من غـير عـدة، أبـا الصـحة تغـترون؟ أم بطـول العافية تمرحون؟ أم الموت تأمنون؟

قـال داود الطـائي: من خـاف الوعيـد قصـر عليـه البعيد، ومن طال أمله ضعف عمله، وكل ما هـو آت قريب.

السبب في طول الأمل وعلاجه:

لـه: سـببان: الأول: حب الـدنيا: فإنـه إذا أنس بهـا وبشهواتها ثقل على قلبها مفارقتها، فامتنع قلبـه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها.

الثاني: الجهل: فالإنسان يعول على شبابه، فيستبعد قرب الموت مع الشباب.

وعلاج الجهـل: بسـماع الحكمـة البالغـة من القلـوب الطـاهرة، وأمـا حب الـدنيا فـالعلاج بالإيمـان بـاليوم الآخر، وبما فيه من عظيم العقاب، وجزيل الثواب.

المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير:

قـال رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: (اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبـل فقـرك، وفراغـك قبـل شـغلك، وحياتـك قبـل موتـك) وقـال عليـه الصـلاة والسـلام: (نعمتـان مغبـون فيهـا كثـير من النـاس: الصـحة، والفـراغ) أي: لا يغتنمهمـا، ثم يعـرف قـدرهما عنـد زوالهما.

وقال عمـر رضـي اللـه عنـه: التـؤدة في كـل شـيء خير، إلا في أعمال الخير للآخرة.

وكـان الحسـن يقـول في موعظتـه: المبـادرة، المبـادرة، فإنمـا هي الأنفـاس لـو حبسـت انقطعت عنكم أعمالكم.

سكرات الموت وشدته:

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبـد المسـكين كـرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات المـوت بمجردهـا، لكان جديراً بأن يفارقه سهوه وغفلتـه، وحقيقـاً بـأن يطول فيه فكره، ويعظم له استعداده...وشـدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها. والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاسـتغرق جميع أجزائـه، حـتى لم يبـق جـزء من أجـزاء الـروح المنتشرة في أعماق البدن، إلا وقد حلّ به الألم، فلا تسل عن بدن يجذب من كـل عـرق من عروقـه، ثم يموت كل عضـو من أعضـائه تـدريجياً، ولكـل عضـو سكرة بعد سكرة، وكربة بعـد كربـة، حـتى يبلـغ بهـا الحلقوم....فلا تسأل عن طعم مرارة الموت، وكربه عند ترادف سكراته.

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان عنده قـدح من مـاء عنـد المـوت، فجعـل يـدخل يـده في الماء، ثم يمسح به وجهه، ويقول: (اللهم هوّن عليّ سكرات الموت.)

فهذه سـكرات المـوت على أوليـاء اللـه، فمـا حالنـا ونحن المنهمكون في المعاصي.

في كلام المحتضرين:

لما حضرت معاويـة بن سـفيان الوفـاة، قـال: اللهم أقلّ العثرة، واغفـر الزلـة، وعـد بحلمـك على من لا يرجو غيرك، ولم يثق بأحد سواك.

ولما حضرت بلالا الوفاة قالت امرأته: واحزناه، فقال: با واطرباه، غداً نلقى محمداً وحزبه. وقال المأمون: يا من لا يزول ملكه، ارحم من قد زال ملكه.

ولما حضرت إبراهيم النخعي الوفاة، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أنتظر من الله رسولاً، يبشرني بالجنة، أو بالنار. ولما حضرت عامر بن عبدالقيس الوفاة، بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ما أبكى جزعاً من الموت، ولا حرصاً على الدنيا، ولكن أبكى على ما يفتوني من ظمأ الهواجر، وعلى قيام الليل.

شهود الجنائز:

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير، وفيها تنبيه وتذكير، قال أسيد بن حضير: ما شهدت جنازة فحدثتني نفسي بشيء سوى ما هو مفعول به، وما هو صائر إليه.

وقال الأعمش: كنا نشهد الجنائز، فلا ندري من نعزي لحزن الجميع.

هكذا كان خوفهم عند الموت، والآن لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون، ولا يتفكر واحد منهم، إلا ما شاء الله، في جنازة نفسه، وفي حاله إذا حمل عليها، ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلب، بكثرة المعاصي والذنوب. حتى نسينا الله تعالى، واليوم الآخر، والأهوال التي بين أيدينا، فصرنا نلهو، ونغفل،

ونشتغل بما لا يعنينا، فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة، فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز. بكاؤهم على الميت، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم، لا على الميت.

زيارة القبور، والاعتبار والاتعاظ بذلك:

زيارة القبور مستحبة، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور، ثم أذن في ذلك بعد، قال عليه الصلاة والسلام: (كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزورها.)

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه، إذا وقف على قبر بكى، فسئل عن ذلك، وقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكى، وتبكى إذا وقفت على قبر؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه صاحبه، فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج فما بعده أشد.)

وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول: ما أحسن ظواهرك، إنما الدواهي في بواطنك.

وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبدالعزيز إلى المقبرة، فلما نظر إلى القبور بكى، ثم أقبل عليّ، فقال: يا ميمون، هذه قبور آبائي بني أمية، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم، أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات،

واستحكم فيهم البلى، وأصابت الهوام أبدانهم، ثم بكى.

والبصير هو الذي ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم، فيستعد للحوق بهم، ويعلم أنهم لا يبرحون مكانهم ما لم يلحق بهم، وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذي هو مضيع له كان أحب إليهم من الدنيا بحذافيرها، لأنهم عرفوا قدر الأعمار، فإنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره، فيتخلص من العذاب، فإنهم عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه، فحسرتهم على ساعة من الحياة، وأنت قادر على تلك الساعة، ثم أنت مضيع لها.

أهوال يوم القيامة:

عرفت فيما سبق أحوال الميت في سكرات الموت، وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه، من نفح الصور، والبعث يوم النشور، والعرض على الجبار، والسؤال عن القليل والكثير، ونصب الميزان. ثم جوز الصراط مع دقته وحدته، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالإسعاد، وإما بالإشقاء. فهذه أحوال وأهوال لا بد لك من معرفتها، ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق، ثم تطويل الفكر في ذلك لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها، وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم، ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم، ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف، وبرد

الشـتاء، وتهـاونهم بحـرِّ جهنم، وزمهريرهـا، مـع مـا تكنفـه من المصـاعب والأهـوال. بـل إذا سـئلوا عن اليـوم الآخـر، نطقت بـه ألسـنتهم، ثم غفلت عنـه قلوبهم. فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار، وأكثر فيها التفكر والاعتبار، فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار.

تفكر أولاً فيما يقـرع سـمع سـكان القبـور من شـدة نفح الصور، فإنها صيحة واحدة، تنفرج بها القبور عن الموتى، فيثورون دفعة واحـدة. قـال تعـالى: (ونفخ في الصـور فصـعق من في السـماوات ومن في الأرض إلا من شاء اللـه ثم نفخ فيـه أخـرى فـإذا هم قيـام ينظـرون) [الزمـر:68] فتفكـر في الخلائـق، وذلهم وانكسارهم، واستكانتهم عنـد الانبعـاث خوفـاً من هـذه الصـعقة، وانتظـاراً لمـا يقضـي عليهم من سـعادة أو شـقاوة، وأنت فيمـا بينهم منكسـر كانكسارهم، متحير كتحيرهم، بل إن كنت في الـدنيا من المـترفين، والأغنيـاء المتنعمين، فملـوك الأرض في ذلك اليوم أذل أهل الأرض وأصغرهم وأحقرهم، فتفكر في حالك، وحال قلبك هنالك.

ثم انظـر كيـف يسـاقون بعـد البعث والنشـور حفـاةً عراةً، غـرلاً إلى أرض المحشـر، فسـبحان من جمـع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض.

ثم تفكر في ازدحام الخلائق في الموقف، فأشرقت عليهم الشـمس، وقـد تضـاعف حرهـا، وأدنيت من

رؤوس العالمين، تقف الخلائق شاخصة أبصارهم، منفطرة قلوبهم.

فاستعد يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه، المديد زمانه، القاهر سلطانه، القريب أوانه، يوم تخرس فيه الألسن، وتنطق الجوارح، يوم شيّب ذكره سيد المرسلين، إذ قال له الصديق رضي الله عنه: أراك قد شبت يا رسول الله، قال: (شيبتني هود وأخواتها) وهي: الواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت، فيأيها القارئ للقرآن لو كنت متفكراً فيما تقرؤه لكنت جديراً بأن تنشق مرارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين، وإذا قنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن، فالقيامة أحد ما ذكر فيها، وقد وصف الله بعض دواهيها، وأكثر من أساميها، لتقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها، فاحرص على معرفة معانيها.

فيا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم، حيث أغلقت الأبواب، وأرخيت الستور، واستترت عن الخلائق، فقارفت الفجور، فما تفعل، وقد شهدت عليك جوارحك؟

فكيف ترى حياءك وخجلتك، وهو يعد عليك إنعامه، ومعاصيك، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك، فنعوذ بالله من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الأعضاء إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه، ولا يطلع عليه غيره.

ثم لا تغفل عن الفكر في الميزان، وتطاير الكتب إلى الأيمان والشمائل، واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان، إلا من حاسب في الدنيا نفسه، ووزن فيها بميزان الشرع أعماله، وأقواله.

قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا.

وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحاً، ويتدارك ما فرط من تقصير في فرائض الله تعالى، ويرد المظالم حبة بعد حبة، ويستحل كل من تعرض له بلسانه، ويده، ويطيب قلوبهم حتى يموت، ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة. فإن مات قبل ردّ المظالم، أحاط به خصماؤه، قال تعالى: (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم) [غافر:17] فعند ذلك ينخلع قلبك، قال تعالى: (ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء * وأنذر الناس) [إبراهيم:42_44] فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس، وتناول أموالهم! وما أشدّ حسراتك في ذلك اليوم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هل تدرون من المفلس) قالوا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له، ولا دينار، ولا متاع.) قال: (المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا،

وســفك دم هــذا، وضــرب هــذا، فيعطى هــذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فـنيت حسـناته قبـل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار.) فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم.

ثم تفكر بعـد هـذه الأهـوال أن النـاس يسـاقون إلى الصراط، قال تعالى: (فاهدوهم إلى صراط الجحيم * وقفوهم إنهم مسئولون) [الصافات:23_24] وهو جسر ممدود على متن النـار، فمن اسـتقام في هـذا العـالم على الصـراط المسـتقيم خـف على صـراط الآخرة، ونجـا، ومن عـدل عن الاسـتقامة في الـدنيا، وأثقل ظهـره بـالأوزار، وعصـى، تعـثر في أول قـدم وتردى فتفكر الآن فيما يحـل من الفـزع بفـؤادك إذا رأيت الصراط ودقته

فهذه أهوال الصراط وعظائمه، فطول فيــه فكــرك، فإن أسلم الناس من أهوال يـوم القيامـة، من طـال فيها فكره في الدنيا. فإن اللـه لا يجمـع بين خـوفين على عبد، فمن خاف هذه الأهـوال في الـدنيا، أمنهـا في الآخرة، ولست أعـنى بـالخوف أن تـدمع عينـك، ويرق قلبك، حـال السـماع، ثم تنسـاه على القـرب، وتعود إلى لهـوك ولعبـك، فمـا هـذا من الخـوف في شيء، بل من خاف شيئاً هرب منه، ومن رجـا شـيئاً طلبه. فلا ينجيك إلا خوفك يمنعـك عن معاصـي اللـه تعالى، ويحثك على طاعته.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل، فنختم الكتاب ببيان سعة رحمة الله، قال تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) [النساء:48] وقال تعالى: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) [الزمر:53] وقال تعالى: (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) [النساء:110]

ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم، ونستغفره من أقوالنا التي لا توافق أعمالنا، ونستغفره مما كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم غالطه غيره، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته.

ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك، أن نكرم بالمغفرة والرحمة، والتجاوز عن جميع السيئات، ظاهراً وباطناً، فإن الكريم عميم، والرحمة واسعة، والجود على أصناف الخلائق فائض. ونحن خلق من خلق الله عز وجل، لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه، فنرجو من الله تعالى، أن لا يعاملنا بما نستحقه، ويتفضل علينا بما هو أهله، بمنه وسعة جوده ورحمته.

أسأل الله الرحيم أن يتغمد الجميع برحمته، وأن يتجاوز عنا فيما وقعنا فيه، من خطأ أو زلل. وأن

يرينا الحـق حقـاً ويرزقنـا اتباعـه، وأن يرينـا الباطـل باطلاً ويرزقنا اجتنابه. وصـلى اللـه وسـلم على نبينـا محمد وعلى آله وصحبه.

فهرس الموضوعات

المحتويات

المقدمة 3

الربع الأول: ربع العبادات 5
فضيلة العلم والتعلم والتعليم: 5
آداب المتعلم: 7
وظائف المعلم: 8
كتاب أسرار الطهارة 9
مراتب الطهارة: 9
فضيلة الوضوء: 9
كتاب أسرار الصلاة 10
كتاب أسرار الزكاة 11
آداب المزكي: 11
وظائف القابض: 12
فضل صدقة التطوع: 12
كتاب أسرار الصوم 13
كتاب أسرار الحج 14
كتاب آداب تلاوة القرآن 16
كتاب الأذكار والدعوات 17
كتاب الأوراد وقيام الليل 18
فضيلة قيام الليل:19
الأسباب الميسرة لقيام الليل: 19

الربع الثاني: ربع العادات 21
كتاب آداب النكاح 23
آداب المعاشرة وما يجري في دوام النكاح: 25
حقوق الزوج على الزوجة: 27
كتاب آداب الكسب والمعاش 28
العدل واجتناب الظلم في المعاملة: 28
الإحسان في المعاملة: 30
شفقة التاجر على دينه: 30
كتاب الحلال والحرام 32
كتاب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة 33
البغض في الله: 33
الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته: 33
حقوق الأخوة والصحبة: 35
حقوق المسلم: 37
حقوق الجوار: 39
حقوق الوالدين والولد: 40
حقوق الأقارب والرحم: 40
حقوق المملوك: 41
كتاب آداب العزلة 42

فوائد العزلة: 42
فوائد المخالطة: 42
كتاب آداب السفر43
كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر45
كتاب أخلاق النبوة47
الربع الثالث: ربع المهلكات49
كتاب رياضة النفس 50
فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق: 50
بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق 51
قبول الأخلاق للتغير بالرياضة: 52
الأسباب التي ينال به حسن الخلق: 52
الطريق إلى تهذيب الأخلاق: 52
الطرق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه: 53
علامات حسن الخلق: 53
رياضة الصبيان وتأديبهم وتحسين أخلاقهم: 54
كتاب شهوة البطن 56
ذم الشبع: 56
فوائد قلة الأكل: 56
كتاب آفات اللسان 58

عظيم خطر اللسان: 58
الكلام فيما لا يعنيك: 58
فضول الكلام: 59
الخوض في الباطل: 60
المراء والجدال: 60
الخصومة: 61
التقعر في الكلام: 62
الفحش وبذاءة اللسان: 62
المزاح: 62
الشعر: 63
اللعن: 63
السب: 63
السخرية والاستهزاء: 63
إفشاء السر: 64
الوعد الكاذب: 64
الكذب في القول واليمين: 64
الغيبة: 65
حدّ الغيبة: 65
البواعث على الغيبة: 65

علاج الغيبة: 66
الأعذار المرخصة في الغيبة: 66
النميمة: 67
كلام ذي اللسانين: 68
كتاب ذم الغضب والحقد والحسد 69
كتاب ذم الدنيا 78
كتاب ذم البخل وذم حب المال 80
كتاب ذم الجاه والرياء 86
كتاب ذم الكبر والعجب 92
كتاب ذم الغرور 99
الربع الرابع: ربع المنجيات 104
وجوب التوبة وفضلها: 104
ما تعظم به الصغائر من الذنوب: 105
كتاب الصبر والشكر 107
كتاب الخوف والرجاء 111
حقيقة الخوف: 112
كتاب الفقر والزهد 114
كتاب التوكل 115
كتاب محبة الله عز وجل 116

كتاب النية والإخلاص والصدق 118
كتاب المراقبة والمحاسبة 121
محاسبة النفس بعد العمل: 122
توبيخ النفس ومعاتبتها: 123
كتاب التفكر 124
فضيلة التفكر: 124
كتاب ذكر الموت وما بعده 126
الترغيب في الإكثار من ذكر الموت: 126
نصيحة 133
فهرس الموضوعات 135